أعلام خالدة في القرآن الكريم

ذو القرنين - مؤمن آل فرعون - الخضر.
العزيز - لقمان - مؤمن يس - أهل الكهف.

بقلم
الدكتور
شحاتة حسيب الفيومي
الأستاذ المساعد بقسم التفسير
بكلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية
جامعة الأزهر

الطبعة الأولى
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

دار الطباعة المحمدية
٣ درب الأتراك بالأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لقد ساق الله الحديث عن تلك الشخصيات وهذه الأعلام أثناء قصص الأنبياء أو أنه ساق بعضها منفردة لما فيها من العبر المناسبة فى موطن ورودها من النص القرآنى وقبل أن أتناول هذه الأعلام لابد أن أتعرض لمعنى القصص فإن لهذا الجمع معنى ففعله قص و (قص أثره قصاً وقصيصاً تتبعه والخبر أعلمه «فارتدا على آثارهما قصصاً »(١) أى رجعا من الطريق الذى سلكاه يقصان الأثر و « نحن نقص عليك أحسن القصص »(٢) نبين لك أحسن البيان ، والقاص من يأتى بالقصة)(٣) فكان القاص يتتبع آثار من وردت فيه القصة، والقصة: ما كانت متضمنة لمقدمة وعقد وحلول لمواقفها المتباينة والبعض يضمن القصة المقدمة والعقدة ويترك الحل للقارىء.

والمراد بالقصص القرآنى : إيراد آثار الأنبياء وأحوالهم مع أقوامهم بأسلوب يشتمل على العقد والحلول ، والقصص القرآنى يخالف القصص البشرى من وجوه :

الوجه الأول : أن القصص القرآنى وارد من الله تعالى فهو خارج من مشكاة الحظيرة القدسية وعلى ضوء ذلك تكون وسائله وأهدافه نبيلة تغرس فى النفوس البشرية مكارم الأخلاق والمبادىء الجميلة والخصال الحميدة

---

(١) سورة الكهف آية ٦٤

(٢) سورة يوسف آية ٣

(٣) القاموس المحيط حـ ٢ ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

التى تنير لهم طرق السعادة فى الدنيا والآخرة ، أما القصص البشرى فليس كذلك وإن سما القاص فلابد أن يزل فى موقف من المواقف .

الوجه الثانى : القصص القرآنى واقعى فليس فيه موقف واحد وليد الخيال أما القصص البشرى فهو من وحى الخيال وإن توخى القاص الواقعية فإنه يبنى عليها صرحاً شامخاً من خياله .

الوجه الثالث : الموضوعات التى يتناولها القصص القرآنى أتت لترسخ العقائد والمبادات أما موضوعات القصص البشرى فهى موضوعات تولد فى ذهن القاص نتيجة بيئته وأحواله ومزاجه وأحداثه التى عايشها .

الوجه الرابع : القصص البشرى يتناول غالباً موضوعات تثير الغرائز أما القرآن الكريم فليس فيه ذلك وإن تناول قصة تتعلق بالغريزة الجنسية فإنه يدعو إلى العفة ولكن فى أثناء القصة يستخدم الألفاظ التى لا تحرك ساكناً والكنايات التى لا تشير شيئاً ، وهذا قد ورد فى قصة واحدة ولم تتكرر وهى قصة يوسف وما أجمل العبارات والألفاظ التى تعطى المعانى دون إثارة ، أما القصص البشرى فما أسوأه وما ألعنه .

الوجه الخامس : وسائل الأهداف فى القصة القرآنية كلها تدعوا إلى الخلال الكريمة أما وسائل القصص البشرى فإنها ترسخ الصفات الخسيسة فى أذهان القراء وهـذا نراه فى القصص البوليسى فأحدث أساليب السرقة والسطو يتعلمها اللصوص من القصص المقروء أو من قصص السينما أو التليفزيون .

الوجه السادس : الأسلوب القرآنى جميل بديع يتميز بالرصانة وقوة البيان وفصاحة العبارات أما القصص البشرى فليس كذلك .

الوجه السابع : القصص القرآنى يزيد القارىء قرباً من الله تعالى فهو يثاب عليه أما القصص البشرى ففيه ضياع للوقت والعمر ويكون القارىء قريباً من الشيطان .

أنواع القصص القرآني :

للقصص القرآني أنواع وهي :

١ — قصص يتناول الأنبياء ومواقفهم مع أقوامهم، ومواقف الأقوام وعنادهم معهم ، وعاقبة المؤمنين والمكذبين وذلك كقصص نوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من الأنبياء .

٢ — قصص يتناول أشخاصاً ليسوا بأنبياء بل لهم مواقفهم مع الأنبياء فوقفوا في صفوفهم وطفقوا يدعون إلى الله معهم ويذبون غوائل الأقوام عنهم ، أو تواروا عن الأنظار وعكفوا على عبادة الواحد القهار ، أو كانوا أصحاب تجربة فكانوا برهاناً على البعث والنشور ، وهذا النوع هو ميدان هذا الكتاب والأعلام الذين وردوا فيه.

٣ — قصص يتناول أشخاصاً سلكوا طريق الشيطان فكانوا دعاة شر فساق الله قصصهم حتى يتجنب الخلق سلوكهم كقصة قارون وقصة امرأة نوح وامرأة لوط .

لماذا ساق القرآن أعلام الخير بين الأنبياء :

١ — أتى الله بهؤلاء الأعلام الذين دعوا إلى التوحيد ودرجوا على منهج حتى لا يزعم أحد أنه لا يستطيع أن يأتسى بالأنبياء فهم أنبياء ولا يقدر على أن يفعل فعلهم فأتى الله بهؤلاء الأعلام ليبين للناس أن من البشر من صار مثلا يحتذى وهم ليسوا بأنبياء .

٢ — بيان أن من البشر العاديين من وقف في وجه طاغية الدنيا ومدعى الألوهية ودافع عن نبي لله وذلك كمؤمن آل فرعون فصار قدوة للناس وفي هذا حث على الدفاع عن الأنبياء .

٣ — ساق الله تعالى هؤلاء الأعلام لتكون أسوة لغيرها فى سرعة فعل الخير وإنقاذ أهله كما فى قصة مؤمن يس.

٤ — أتى الله بهؤلاء الأعلام لتكون تسلية للمسلمين ينهلون من معينها فيكون زاداً فى ثباتهم أمام الشرك ومضيا فى طريق التوحيد.

٥ — ساق الله هؤلاء ليعلن للبشرية أن من عمل الخير يبقى أثره بعد رحيله عن الدنيا فذكر الله هؤلاء فكانوا قرآنا يتلى فيعيشون فى وجدان الناس ويوم القيامة يدخلون الجنان.

العلم الأول

ذو القرنين

أسمه :

(وقد اختلف فى اسمه فروى ابن مردويه من حديث ابن عباس وأخرجه الزبير فى كتاب « النسب » عن إبراهيم بن المنذر عن عبد العزيز ابن عمران عن إبراهيم بن إسماعيل بن أبى حبيبة عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال : ذو القرنين عبد الله بن الضحاك بن معد بن عدنان واسناده ضعيف جداً لضعف عبدالعزيز وشيخه وهو مباين لما تقدم أنه كان فى زمن إبراهيم فكيف يكون من ذريته لا سيما على قول من قال كان بين عدنان وإبراهيم أربعون أباً أو أكثر وقيل أسمه الصعب وبه جزم كعب الأحبار وذكره ابن هشام فى التيجان عن ابن عباس أيضاً وقال أبو جعفر بن حبيب فى كتاب « المحبر هو المنذر بن أبى القيس أحد ملوك الحيرة وأمه ماء السماء ماوية بنت عوف بن جشم قال وقيل اسمه الصعب ابن قرن بن همال من ملوك حمير وقال الطبرى هو اسكندروس بن فيلبوس وقيل فيلبس وبالثانى جزم المسعودى وقيل اسمه الهميسع ذكره الهمدانى فى كتب النسب قال وكنيته أبو الصعب وهو ابن عمرو بن عريب ابن زيد بن كهلان بن سبأ وقيل ابن عبد الله بن قرين بن منصور بن عبد الله ابن الأزد وقيل بإسقاط عبد الله الأول)(١) . وهو عربى .

---

(١) فتح البارى جـ ٦ صـ ٣٨٤

قال الشاعر أعشى بن ثعلبة :

والصعب ذو القرنين أمسى ثاويا
بالحنو[1] فى جدث هناك مقيم

وقال : الربيع بن ضبيع :

والصعب ذو القرنين عمر ملكه
ألفين أمسى بعد ذلك رميا

وقال : قس بن ساعده :

والصعب ذو القرنين أصبح ثاويا
باللحد بين ملاعب الأرياح

وقال : تبع الحميرى :

قد كان ذو القرنين قبلى مسلماً
ملكا تدين له الملوك وتحشد

آراء العلماء فيه :

لقد تباينت آراء العلماء واختلفت مشاربهم فى الحديث عن حقيقة هذه الشخصية ومنبتها إلى آراء متعددة :

الرأى الأول :

ذهب ابن إسحاق إلى أنه رجل مصرى واسمه مرزبان بن مرزبه اليونانى وهو من ولد يونان بن يافث بن نوح .

---

(١) الحنو : بكسر الحاء مكان فى ناحية المشرق .

الرأى الثـانى :

ساق الفخر الرازى قولا يقول أهله إنه الاسكندر بن فيلبوس اليونانى قالوا والدليل عليه أن القرآن دل على أن الرجل المسمى بذى القرنين بلغ ملكه إلى أقصى المغرب وبلغ ملكه أقصى المشرق (وأيضاً بلغ ملكه أقصى الشمال بدليل أن يأجوج ومأجوج قوم من الترك يسكنون فى أقصى الشمال وبدليل أن السد المذكور فى القرآن يقال فى كتب التواريخ أنه مبنى فى أقصى الشمال فهذا الإنسان المسمى بذى القرنين فى القرآن قد دل على أن ملكه بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال وهذا هو تمام القدر المعمور من الأرض ومثل هذا الملك البسيط لاشك أنه على خلاف العادات وما كان كذلك وجب أن يبقى ذكره مخلداً على وجه الدهر وأن لايبقى مخفياً مستتراً والملك الذى اشتهر فى كتب التواريخ أنه بلغ ملكه إلى هذا الحد ليس إلا الإسكندر وذلك لأنه لما مات أبوه جمع ملوك الروم بعد أن كانوا طوائف ثم جمع ملوك المغرب وقهرهم وأمعن حتى انتهى إلى البحر الأخضر ثم عاد إلى مصر فبنى الإسكندرية وسماها باسم نفسه ثم دخل الشام وقصد بنى إسرائيل وورد بيت المقدس وذبح فى مذبحه ثم انعطف إلى أرمينية وباب الأبواب ودانت له العراقيون والقبط والبربر ثم توجه نحو دار بن دار وهزمه مرات إلى أن قتله صاحب حرسه فاستولى الاسكندر على ممالك الفرس ثم قصد الهند والصين وغزا الأمم البعيدة ورجع إلى خراسان وبنى المدن الكثيرة ورجع إلى العراق ومرض بشهر زور ومات بها فلما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين كان رجلا ملك الأرض بالكلية أوما يقرب منها وثبت بعلم التواريخ أن الذى هذا شأنه ما كان إلا الإسكندر وجب القطع بأن المراد بذى القرنين هو الإسكندر بن فيلبوس اليونانى(١)

---

(١) التفسير الكبير جـ ٢١ صـ ١٦٤

الرأى الثالث :

قال أبو الريحان الهروى الشهير بالبيرونى المؤرخ والجغرافى والفلكى (قيل إن ذا القرنين هو أبو كرب شمر بن عبير بن أفريعس الحميرى فإنه بلغ ملكه مشارق الأرض ومغاربها وهو الذى افتخر به أحد الشعراء من حمير حيث قال :

قد كان ذى القرنين قبلى مسلماً
ملكا علا فى الأرض غير مفندى

بلغ المشارق والمغارب يبتغى
أسباب ملك من كريم سيد

ثم قال أبو الريحان : ويشبه أن يكون هذا القول أقرب لأن الأذواء كانوا من اليمن وهم الذين لاتخلو أساميهم من ذى كذاء كذى النادى وذى نواس وذى النون وغير ذلك)(١).

آراء متفرقة : —

وقيل إن الإسكندر بن فيلبوس هو ابن دار الأكبر وذلك لأن الفرس (قالوا إن دار الأكبر كان قد تزوج بابنة فيلبوس فلما قرب منها وجد منها رائحة منكرة فردها على أبيها فيلبوس وأظهر فيلبوس أنه ابنه وهو فى الحقيقة ابن دار الأكبر قالوا والدليل عليه أن الإسكندر لما أدرك دارا بن دارا وبه رمق وضع رأسه فى حجره وقال لدارا ياأخى أخبرنى عمن فعل هذا لأنتقم لك منه . فهذا ماقاله الفرس قالوا وعلى هذا التقدير فالإسكندر أبو دارا الأكبر وأمه بنت فيلبوس فهو إنما تولد من أصلين مختلفين الفرس

---

(١) التفسير الكبير ج ٢١ ص ١٦٥

والروم وهذا الذى قاله الفرس إنما ذكروه لأنهم أرادوا أن يجعلوه من نسل ملوك العجم حتى لا يكون ملك مثله من نسب غير نسب ملوك العجم وهو فى الحقيقة كذب وإنما قال الإسكندر لدارا ياأبى على سبيل التواضع وأكرم دارا بذلك الخطاب)(١) .

ولقد ساق الطبرى بعض الآراء الأخرى وهى : —

أولا : إنه الإسكندر : قال فحدثنا به كريب قال ثنا زيد بن حباب عن ابن لهيعة قال ثنى عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن شيخين من تجيب(٢) قال أحدهما لصاحبه انطلق بنا إلى عقبة بن عامر نتحدث قالا فأتياه فقالا جئنا لتحدثنا فقال كنت يوماً أخدم رسول الله ﷺ فخرجت من عنده فلقينى قوم من أهل الكتاب فقالوا نريد أن نسأل رسول الله ﷺ فاستأذن لنا عليه فدخلت عليه فأخبرته فقال مالى ومالهم مالى علم إلا ماعلمنى الله ثم قال اسكب لى ماء فتوضأ ثم صلى قال فلما فرغ حتى عرفت السرور فى وجهه ثم قال أدخلهم على ومن رأيت من أصحابى فدخلوا فقاموا بين يديه فقال إن شئتم سألتم فأخبرتكم عما تجدونه فى كتابكم مكتوباً وإن شئتم أخبرتكم قالوا بلى أخبرنا . قال جئتم تسألونى عن ذى القرنين وماتجدونه فى كتابكم كان شاباً من الروم فجاء فبنى مدينة مصر الإسكندرية فلما فرغ جاءه ملك فعلا به فقال ماترى فقال أرى مدينتى ومدائن ثم علا به فقال ماترى فقال أرى مدينتى ثم علا به فقال ماترى قال أرى الأرض قال فهذا اليم محيط بالدنيا إن الله بعثنى إليك تعلم الجاهل وتثبت العالم فأتى به

---

(١) نفس المرجع السابق صـ ١٦٥.

(٢) تجيب : بطن من كنده منهم كنانة بن بشر التجيبى قاتل عثمان ابن عفان .

السد وهو جبلان لينان يزلق عنهما كل شيء ثم مضى به حتى جاوز يأجوج ومأجوج ثم مضى به إلى أمة أخيرة وجوههم وجوه الكلاب يقاتلون يأجوج ومأجوج ثم مضى به حتى قطع به أمة أخرى يقاتلون هؤلاء الذين وجوههم وجوه الكلاب ثم مضى حتى قطع به هؤلاء إلى أمة أخرى قد سماهم)(١)

ثانياً : إنه عبد صالح وروى روايات عن الإمام علي رضي الله عنه ستأتي في سبب تسمية ذي القرنين بهذا الاسم .

ولقد رجح الإمام الفخر الرازي الرأي الثاني وترجيحه كما سبق آنفا فلما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين كان رجلا ملك الأرض بالكلية أو مايقرب منها وثبت بعلم التواريخ أن الذي هذا شأنه ما كان إلا الإسكندر وجب القطع بأن المراد بذي القرنين هو الإسكندر بن فيلبوس اليوناني » .

وقال الفخر أيضاً : (والقول الأول(٢) أظهر لأجل الدليل الذي ذكرناه وهو أن مثل هذا الملك العظيم يجب أن يكون معلوم الحال عند أهل الدنيا والذي هو معلوم الحال بهذا الملك العظيم هو الإسكندر)(٣)

ولقد أورد الرازي على هذا الاتجاه إشكالا قال فيه « إلا أن فيه إشكالا قوياً وهو أنه — أي الإسكندر — كان تلميذ أرسطاطاليس الحكيم وكان على مذهبه فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصدق وذلك مما لا سبيل إليه والله أعلم »(٤)

---

(١) تفسير الطبري ج ١٦ ص ٧ ، ٨

(٢) يريد به أنه الإسكندر بن فيلبوس .

(٣) التفسير الكبير ج ١١ ص ١٦٦

(٤) المرجع السابق .

ولقد درأ هـــذا الإشكال النيسابورى قال صاحب فتح القدير « قال النيسابورى قلت ليس كل ماذهب إليه الفلاسفة باطلا فلعله أخذ منهم ماصفا وترك ما كدر »(١)

والذى أراه : —

إنه ليس الإسكندر بن فيلبوس كما ذهب الفخر الرازى فمع اتجاهه هذا الاتجاه أورد عليه إشكالا وترك الإشكال دون درئه . ورد النيسابورى من قبيل الانتصار للرازى ولكن ليس الإسكندر الذى ذهب إليه الرازى فإن كان قد تتلمذ على يد أرسطاليس فإنه يكون شرب من مكره ولا نقول أنه أخذ ماصفا وترك ما كدر فإن ما كان من عند غـــير الله فى الأمور العقائدية فهو كدر وطين . وأما الرواية التى رواها شيخ المفسرين الطبرى فرواية واهية فيها مجهولان ولا يعتمد عليها . ومما يزيد من نكارتها وجود الأمم التى وجوههم وجوه الكلاب . أين هذا من قول الله تعالى(لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) وقوله (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر) .

ولقد قال الحافظ بن كثير عن رواية ابن جرير (وقد أورد ابن جرير ههنا والأموى فى مغازيه حديثاً أسنده وهو ضعيف عن عقبة بن عامر أن نفراً من اليهود جاءوا يسألون النبى — صلى الله عليه وسلم — عن ذى القرنين فأخبرهم بما جاءوا له ابتداء فكان فيما أخبرهم به أنه كان شاباً من الروم وأنه بنى الإسكندرية وأنه علا به ملك فى السماء وذهب به إلى السدور أى أقواماً وجوههم مثل وجوه الكلاب وفيـــه طول ونكاره ورفعه لايصح وأكثر مافيه أنه من أخبار بنى إسرائيل والعجب أن أبا زرعة

---

(١) فتح القدير جـ٣ صـ٣٠٧

الرازى مع جلالة قدره ساقه بتمامه فى كتابه دلائل النبوة ،وذلك غريب منه وفيه من النكارة أنه من الروم »(١) .

ولقد اصاب الأزرقى المخبر حينما فرق بين شخصيتين هما الإسكندر الأول وكان فى زمن الخليل إبراهيم وأنه هو المراد بذى القرنين وأن الشخصية الثانية هى شخصية الإسكندر المقدونى الذى تؤرخ به الروم وكان وزيره أرسطاليس الفيلسوف المشهور وكان وثنياً ولقد رضى هذا الرأى الحافظ ابن كثير فقال « فأما الأول فقد ذكر الأزرقى وغيره أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل عليه السلام أول ما بناه وآمن به واتبعه ، وكان وزيره الخضر عليه السلام . وأما الثانى فهو إسكندر بن فيلبس المقدونى ، اليونانى وكان وزيره أرسطاليس الفيلسوف المشهور والله أعلم . وهو الذى تؤرخ من مملكته الروم وقد كان قبل المسيح عليه السلام بنحو من ثلثمائة سنة ، فأما الأول المذكور فى القرآن فكان فى زمن الخليل ، كما ذكره الأزرقى وغيره وأنه طاف مع الخليل عليه السلام بالبيت العتيق لما بناه إبراهيم عليه السلام وقرب إلى الله قرباناً »(٢) .

يقول شيخ الإسلام ابن حجر فى شرحه لصحيح البخارى (وفى إيراد المصنف ترجمة ذى القرنين قبل إبراهيم إشارة إلى توهين قول من زعم أنه الإسكندر اليونانى لأن الاسكندر كان قريبـــاً من زمن عيسى عليه السلام وبين زمن إبراهيم وعيسى أكثر من ألفى سنة ، والذى يظهر أن الإسكندر المتأخر لقب بذى القرنين تشبيهاً بالمتقدم لسعة ملكه وغلبته على البلاد الكثيرة أو لأنه لما غلب على الفرس قتل ملكهم انتظم له ملك المملكتين الواسعتين الروم والفرس فلقب ذا القرنين لذلك والحق أن الذى

---

(١) تفسير القرآن العظيم حـ ٣ ص ١٠٠

(٢) المرجع السابق .

قص الله نبأه فى القرآن هو المتقدم والفرق بينهما من أوجـــه : أحدها ماذكرته والذى يدل على تقدم ذى القرنين ما روى الفاكهى من طريق عبيد الله بن عمير أحد كبار التابعين أن ذا القرنين دخل المسجد الحرام فسلم على إبراهيم وصافحه ويقال إنه أول من صافح ومن طريق عثمان بن ساج أن ذا القرنين سأل إبراهيم أن يدعو له فقال « وكيف وقد أفسدتم بئرى؟ فقال لم يكن ذلك عن أمرى : يعنى أن بعض الجند فعـل ذلك بغير علمه . وذكر ابن هشام فى « التيجان » أن إبراهيم تحاكم إلى ذى القرنين فى شىء فحـكم له . وروى ابن أبى حاتم من طريق على بن أحمد أن ذا القرنين قدم مكة فوجد إبراهيم وإسماعيل يبنيان الـكعبة فاستفهمهما عن ذلك فقالا نحن عبدان مأموران فقال من يشهد لـكما ؟ فقامت خمسة أكبش فشهدت فقال : قد صدقتم قال وأظن الأكبش المذكورة حجارة ويحتمل أن تكون غنما ، فهذه الآثار يشد بعضها بعضا . ويدل قدم عهدى ذى القرنين . ثانى الأوجه : قال الفخر الرازى فى تفسيره : كان دو القرنين نبياً ،وكان الإسكندر كافراً وكان معه أرسطاليس وكان يأتمر بأمره وهو من الـكفار بلاشك ، وسأذكر ما جاء فى أنه كان نبياً أم لا . ثالثهما : كان ذو القرنين من العرب وأما الإسكندر فهو من اليونان .

والعرب كلها من ولد سام بن نوح بالاتفاق وإن وقع الاختلاف هل كلهم من بنى إسماعيل أولا ؟ واليونان من ولد يافث بن نوح على الراجح فافترقا)(١) .

(١) فتح البارى حـ ٦ ص٣٨٢ ، ٣٨٣

السر فى تسميته بذى القرنين :

لقد اختلفت اتجاهات العلماء فى سبب تسميته بذى القرنين فكلهم عللوا تلك التسمية بأحداث وقعت لتلك الشخصية أو أوصاف اتسمت بها وهاهى آراؤهم :

١ — روى سفيان الثورى عن حبيب بن أبى ثابت عن أبى الطفيل قال (سئل على رضى الله عنه عن ذى القرنين فقال كان عبداً ناصحاً لله دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات فأحياه الله فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات فسمى ذا القرنين ، وكذا رواه شعبة عن القاسم بن أبى بزه عن أبى الطفيل سمع علياً يقول ذلك)(١) .

٢ — قال وهب بن منبه « كان ملكا وإنما سمى ذا القرنين لأن صفحتى رأسه كانتا من النحاس »(٢) .

٣ — ذهب بعض أهل الكتاب فقال : « لأنه ملك الروم وفارس » (٣) .

٤ — قيل إنه « إنما سمى ذا القرنين لأنه بلغ المشارق والمغارب من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب » (٤) ، أى أنه طاف بأطراف الأرض شرقاً وغرباً . وطرفى الأرض يسميان قرنى الأرض فسمى بذى القرنين .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ﺟ ٣ ص ١٠١

(٢) المرجع السابق ص ١٠٠ — ١٠١

(٣) المرجع السابق ص ١٠١

(٤) المرجع السابق .

٥ — سمى بذلك لأنه انقرض فى وقته قرنا البشر .

٦ — قيل كان على رأسه ما يشبه القرنين فسمى بذلك .

٧ — وقيل سمى بذلك لوجود قرنين أى ضفيرتين من شعره فكان يجدلها فيصيران كالقرنين .

٨ — يجوز أن يكون هذا لقب لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشاً لأنه ينطح أقرانه .

٩ — قيل سمى بذلك لأن الله سخر له النور والظلام فإذا سرى ليلا يهديه النور من أمامه وتمده الظلمة من ورائه .

١٠ — قيل إنه رأى فى المنام كأنه صعد الفلك فتعلق بطرفى الشمس وقرنيها وجانبيها فسمى بذى القرنين »(١) .

١١ — وقيل سمى بذلك لأن الله علمه علم الظاهر والباطن .

والذى أراه :

أن أقوى هذه الآراء : الأول والرابع والسابع لأن لها أوجها فى اللغة العربية ، فقد تطلق كلمة ذى القرنين على الرجل الذى ضرب على جانب رأسه، كما يطلق الأشج على الرجل الذى ضرب فى رأسه وتطلق كلمة قرن على حافة الشىء ، تقول قرن المرأة أى حافتها فلما بلغ ذو القرنين حافتى الأرض شرقاً وغرباً سمى بذى القرنين، وكذلك تطلق قرن على ذؤابة المرأة فيقال قرن المرأة .

يقول صاحب القاموس المحيط عن سبب تسميته بذى القرنين : أنه لما دعاهم إلى الله عز وجل ضربوه على قرنه فأحياه الله تعالى ، ثم دعاهم

(١) انظر التفسير الكبير جـ ٢١ ص ١٦٥ ، ١٦٦

فضربوه على قرنه الآخر فمات ثم أحيـــاه الله تعالى ، أو لأنه بلغ قطرى الأرض أو لضفيرتين له والمنـذر بن ماء السماء لضفيرتين كانتا فى قرنى رأسه وعلى بن أبى طالب — كرم الله وجهه — لقوله — صلى الله عليه وسلم إن لك فى الجنة بيتا . ويروى كنزا وإنك لذوقرنيها أى ذو طرفى الجنة وملكها الأعظم تسلك ملك جميع الجنة ، كما سلك ذو القرنين جميع الأرض أو ذو قرنى الأمة فأضمرت وإن لم يتقدم ذكرها أو ذو جبليهـــا للحسن والحسين وذو شجتين فى قرنى رأسه إحداهما من عمرو بن عمود والثانية من ابن ملجم لعنه الله وهذا أصح)(١) .

هل ذو القرنين نبى أم عبد صالح :

لقد تباينت آراء العلماء فى كونه نبياً أم عبداً صالحاً فذهبوا إلى فرق متعددة :

الفريق الأول :

قالوا إنه نبى والذى دعاهم إلى ذلك نصوص القرآن التى تدل على نبوته وهذه الأدلة هى :

١ — قوله تعالى « إنا مكنا له فى الأرض » فقالوا إن المراد بالتمـكين تمـكينه بالدين والتمـكين بالدين يكون عن طريق النبوة .

٢ — قوله تعالى « وآتيناه من كل شىء سبباً فأتبع سبباً » فالله أعطاه من كل شىء سبباً يتوصل به إلى مقصوده وغايته وقالوا ومن جملة الأشياء النبوة فهى من جملة ما أعطاه الله له .

٣ — قوله تعالى « قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم

(١) القاموس المحيط ح ٤ ص ٢٦٠

حسنا ، فالضمير وهو نا الفاعلين يعود على الله تعالى فالمتكلم هو الله والمنادى هو الله والمنادى عليه هو ذو القرنين والذى تكلم معه الله يكون نبياً .

ولقد انتصر لهذا الفريق الإمام الفخر الرازى فبعد أن ساق أدلة هذا الفريق قال (وأما قوله « إنا مكنا له فى الأرض » فهذا التمكين يحتمل أن يكون المراد منه التمكين بسبب النبوة ويحتمل أن يكون المراد منه التمكين بسبب الملك من حيث إنه ملك مشارق الأرض ومغاربها والأول أولى لأن التمكين بسبب النبوة أعلى من التمكين بسبب الملك وحمل كلام الله على الوجه الأكمل الأفضل أولى .

ثم قال أى — الله « وآتيناه من كل شىء سببا » قالوا السبب فى أصل اللغة عبارة عن الحبل ثم استعير لكل ما يتوصل به إلى المقصود وهو يتناول العلم والقدرة والآلة فقوله « وآتيناه من كل شىء سببا » معناه أعطيناه من كل شىء من الأمور التى يتوصل بها إلى تحصيل ذلك الشىء ثم إن الذين قالوا إنه كان نبياً قالوا من جملة الأشياء النبوة فهذه الآية تدل على أنه تعالى أعطاه الطريق الذى به يتوصل إلى تحصيل النبوة والذين أنكروا كونه نبياً قالوا المراد به وآتيناه من كل شىء يحتاج إليه فى إصلاح ملكه سبباً إلا أن لقائل أن يقول إن تخصيص العموم خلاف الظاهر فلا يصار إليه إلا بدليل . ثم قال « فاتبع سبباً » ومعناه أنه تعالى لما أعطاه من كل شىء سببه فإذا أراد شيئاً أتبع سبباً يوصله إليه ويقربه منه . قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو فاتبع بتشديد التاء وكذلك ثم اتبع أى سلك وسار والباقون فأتبع بقطع الألف وسكون التاء مخففة »(١) .

---

(١) التفسير الكبير جـ ٢١ ص ١٦٦

الفريق الثانى :

وشيخ هذا الفريق وحجته هو الإمام على - كرم الله وجهه -. وهو أنه أى ذو القرنين كان عبداً صالحاً أحب الله فأحبه الله ولقد ورد عن الإمام على — رضى الله عنه — روايات متعددة وهى :

(أ) عن أبى الطفيل قال سأل ابن الكواء علياً عن ذى القرنين فقال « هو عبد أحب الله فأحبه وناصح الله فنصحه فأمرهم بتقوى الله فضربوه على قرنه فقتلوه ثم بعثه الله فضربوه على قرنه فمات »(١) فطريق هذه الرواية هو عن ابن حميد عن حكام عن عنبه عن عبيد المكتب عن أبى الطفيل .

(ب) حدثنا محمد بن بشار قال ثنا يحي عن سفيان عن حبيب ابن أبى ثابت عن أبى الطفيل قال « سئل على رضوان الله عليه عن ذى القرنين فقال كان عبداً ناصح الله . فناصحه فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات فأحياه الله فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات فسمى ذا القرنين »(٢) .

(ج) حدثنا محمد بن المثنى قال ثنا محمد بن جعفر قال ثنا شعبة عن القاسم بن أبى بزة عن أبى الطفيل قال سمعت علياً وسألوه عن ذى القرنين أنبياً كان قال كان عبداً صالحاً أحب الله فأحبه وناصح الله فنصحه فبعثه الله إلى قومه فضربوه ضربتين فى رأسه فسمى ذا القرنين وفيكم اليوم مثله »(٣) .

---

(١) تفسير الطبرى ج ١٦ ص ٨

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

الفريق الثالث :

أن ذا القرنين ملك من الملائكة « عن عمر أنه سمع رجلا يقول يا ذا القرنين فقال اللهم غفراً أما رضيتم أن تسموا بأسماء الأنبياء حتى تسموا بأسماء الملائكة »(١) .

والذى أراه :

أن ماروى عن الإمام على هو الصحيح والمقبول فهو عبد صالح وليس نبياً ولاملكا بفتح اللام فلو كان نبياً أو ملكا لبلغنا ذلك عن طريق الخبر الصحيح من الصادق الأمين أو كان هناك إجماع على نبوته فى سؤال السائلين يدل على أنه عبد وليس نبياً فقال اليهود لوفد قريش فى الرواية التى تأتى فى سبب نزول آيات ذى القرنين « سلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ماكان نبؤه وسلوه عن الروح »(٢) .

فلو كان نبياً لقالوا سلوه عن نبي أو عن عبد أوحى الله إليه أو عن ملك ومسكنه فى الأرض وبالنسبة للرواية عن عمر يحتمل أن هناك ملكا من الملائكة فسمى باسم ذى القرنين . وليس ذا القرنين الوارد فى القرآن .

وأناقش الفريق الأول :

١ — لماذا يحمل التمكين على أنه بسبب النبوة أو أنه بسبب الملك من حيث إنه ملك مشارق الأرض ومغاربها . الأولى قبل الذهاب إلى هذين السببين أن يحمل التمكين على العلم والقدرة ويكون المعنى « إنا مكنا له » بالعلم والقدرة والقوة .

---

(١) التفسير الكبير جـ ٢١ ص ١٦٦

(٢) تفسير الطبرى جـ ١٥ ص ١٢٧

٢ — لماذا تقولون « وآتيناه من كل شيء سبباً » معناه أعطيناه من كل شيء من الأمور التى يتوصل بها إلى تحصيل ذلك الشيء ومن جملة الأشياء التى أوتيها النبوة . لماذا لا تفسر هـــذه الجلة بما يأتى وآتيناه فى كل شيء طريقاً يتوصل به إلى المقصود والغاية . وأما القول بأنه من جمل الشيء النبوة فهذا خطأ . ما رأيكم فى قول الله عن بلقيس « وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم »[1] هل نقول إن من جملة ما أعطاه الله النبوة ؟

٣ — أما الاحتجاج بقوله « قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا » فإن من كلمه الله فهو نبى فهذا دليل واه لما يأتى :

١ — يحتمل أن يكون المراد بالقول الإلهام أى ألهمه الله تعالى .

٢ — يحتمل أن يكون هـذا القول على لسان رسول من رسل الله سبحانه وتعالى .

فيكون ذو القرنين عبداً صالحاً وليأ عربياً وهو الإسكندر الأكبر وهو بانى الإسكندرية وكان فى زمن إبراهيم عليه السلام .

زمانه :

سبق أن ذكرنا أنه كان فى زمان إبراهيم عليه السلام وآمن به بخلاف الإسكندر الرومى فقد كان كافراً وثنياً يقول صاحب الفتوحات الإلهية « وهو ولى الله تعالى من أولاد سام بن نوح وكان ابن عجوز ليس لها غيره وكان أسود اللون وكان على شريعة إبراهيم الخليل فإنه أسلم على يديه ودعا له وأوصاه بوصايا وكان يطوف معه وكان الخضر وزيره فكان يسير معه على مقدمة جيشه وهذا بخلاف ذى القرنين الأصغر فإنه من ولد

---

(١) النمل آية ٢٣

العيص بن إسحاق وكان كافراً عاش ألفاً وستمائة سنة وكان قبل المسيح بثلثمائة سنة »(١) .

يأجوج ومأجوج

هؤلاء قوم لابد أن نذكر طرفاً منهم باعتبار أنهم القوم الذين سد عليهم ذو القرنين السد ولقد اختلف العلماء فى تحديد هوية هؤلاء الناس وذهبوا فيهم مذاهب متفرقة :

المذهب الأول :

لقد ساق القرطبى بعض الآثار «عن ابن مسعود سألت النبى ﷺ عن يأجوج ومأجوج فقال عليه الصلاة والسلام « يأجوج ومأجوج أمتان كل أمة أربعمائة ألف أمة كل أمة لا يعلم عددها إلا الله لا يموت الرجل منهم حتى يولد له ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح قيل يارسول الله صفهم لنا قال : هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الأرز — شجر — الصنوبر — بالشام طول الشجرة عشرون ومائة ذراع — وصنف عرضه وطوله سواء نحواً من الذراع وصنف يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه ويأكلون من مات منهم . مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار الشرق وبحيرة طبرية فيمنعهم الله من مكة والمدينة وبيت المقدس » .

وقال على — رضى الله عنه — : وصنف منهم فى طوله شبر لهم

---

(١) الفتوحات الإلهية ج ٣ ص ٤١

مخالب وأنياب السباع وتداعى الحمام وتسافد البهائم وعواء الذئاب وشعور تقيهم الحر والبرد وآذان من عظام إحداهما وبرة يشتون فيها والأخرى جلدة يصيفون فيها يحفرون السد حتى كادوا ينقبونه فيعيده الله كما كان حتى يقولوا : ننقبه غداً إن شاء الله تعالى فينقبونه ويخرجون ويتحصن الناس بالحصون فيرمون إلى السماء فيرد السهم إليهم ملطخاً بالدم ثم يهلكهم الله بالنغف(١) فى رقابهم . ذكره الغزنوى) .

وساق أيضاً بعض الآثار (قلت — أى قال القرطبى — وقد جاء مرفوعا من حديث أبى هريرة خرجه ابن ماجة فى السنن قال قال رسول الله ﷺ « إن يأجوج ومأجوج يحفران كل يـــوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم أرجعوا فستحفرونه غداً فيعيده الله أشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال أرجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله تعالى فاستثنوا فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون المـــاء ويتحصن الناس منهم فى حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فيرجع عليها الدم الذى — أحفظ(٢) — فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيبعث الله تعالى عليهم نغفا فى أقفائهم فيقتلهم بها قال رسول الله ﷺ (والذى نفسى بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر — بفتح الكاف — شكراً(٣) بفتح الشين والكاف — من لحومهم)(٤) .

---

(١) النغف : بالتحريك دود يصيب أنوف الإبل والغنم .
(٢) هذا من كلام الراوى «هامش ابن ماجه»
(٣) أى امتلأت أجواف الدواب
(٤) تفسير القرطبى جـ١١ صـ٥٧ ورواه الطبرى جـ١٦ صـ١٨

وروى ابن جرير (حدثنى بحر بن نصر قال أخبرنا ابن وهب قال ثنى معاوية عن أبى الزاهرية وشريح بن عبيد أن يأجوج ومأجوج ثلاثة أصناف صنف طولهم كطول الأرز وصنف طوله وعرضه سواء وصنف يفترش أحدهم أذنه ويلتحف الأخرى فتغطى سائر جسده)(١).

المذهب الثانى :

وهو اتجاه كعب الأحبار قال : (أحتلم آدم عليه السلام فأختلط ماؤه بالتراب فأسف فخلقوا من ذلك الماء فهم متصلون بنا من جهة آدم لا من جهة الأم. وهذا فيه نظر لأن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه لا يحتلمون وإنما هم من ولد يافث بن نوح) (٢).

المذهب الثالث :

وهو اتجاه حديث نظر أصحابه إلى غارات التتار بقيادة تموجين الملقب نفسه باسم جنكيز خان ومعناه بلغة المغول ملك العالم ولقد خرج من الهضاب المرتفعة التى فى وسط آسيا فى القرن السابع الهجرى بعد أن جمع أمة التتار تحت حكمه وأخضع الصين الشمالية وأخضع السلطان قطب الدين محمد بن تكسن علاء الدين بن أرسلان من الملوك السلجوقية ملك خوارذم وكان يمتد ملكه على بلاد التركستان والفرس وقد دافع ابنه جلال الدين مدافعة الأبطال لرد هجماتهم فلم يرد شيئاً وسقطت الدولة بعد حرب مكثت عشر سنين . ولقد فعلوا بهذه الدولة من المنكرات والفظائع مالم يسمع مثله

(١) تفسير الطبرى ج١٦ ص ١٨ ، ١٩

(٢) تفسير الطبرى ج ١١ ص٥٦

فى التاريخ فلم يبقوا على رجل ولا امرأة ولا طفل فقتلوا الرجال وسبوا النساء وارتكبوا الفواحش وهدموا أسوار خوارزم ودمروها عن آخرها وفعلوا ذلك بسمرقند وبخارى وغيرهما وفتكوا بأهل نيسابور أفنوهم عن آخرهم حتى الأطفال والحيوانات والقطط والكلاب ولقد وصل عدد القتلى فى « مرو » مليونا وثلاثمائة وثلاثين ألفا ولما مات جنكيزخان وانتقل الملك إلى أقطاى غاروا على الروس ودمروا بولونيا وبلاد المجر ولما مات أقطاى قام مقامه جالوك فحارب ملك الروم وألجأه إلى دفع الجزية ثم مات جالوك وقام مقامه ابن أخيه منجو فكلف أخويه « كيلاى وهولاكو » أن يستمرا فى طريق الفتح فاتجه الأول إلى الصين واتجه الثانى إلى المماليك الإسلامية فأخضع الأول بلاد الصين وزحف هولاكو على المماليك الإسلامية وأخذت بغداد عنوة فى نصف القرن التاسع من الهجرة وكان الخليفة إذ ذاك المستعصم بالله وسالت الدماء أنهاراً وطرحوا كتب العلم فى دجلة وجعلوها جسراً يمرون عليه بخيولهم وحضر الخليفة لتسليم ما لديه من الكنوز التى لا تحصى والموروثة عن أجداده وذبحوه وعلقوا جثته فى ذنب حصان وانتهت الخلافة العباسية ببغداد واستمرت فتوحات المغول إلى بلاد الشام(١) .

ومن هذا المنطق التاريخى اتجه بعض المفكرين ومنهم الشيخ أحمد مصطفى المراغى فى تفسيره ولقد ساق نفس الكلام السابق(٢) .

---

(١) انظر تفسير الجواهر ج٩ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤

(٢) تفسير المراغى ج١٦ ص ١٣ ، ١٤

والذى أراه :

أن يأجوج ومأجوج قوم من البشر وعلى هيئة البشر وهم من ذرية نوح لما ورد عن نوح أنه قال «رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً»(١) .

وقال تعالى «فأنجيناه وأصحاب السفينة»(٢) فلما نجا نوح ومن معه من الغرق هلك كل من كان معه وبقى نوح وذريته قال تعالى «وجعلنا ذريته هم الباقين»(٣) وهم موجودون على ظهر الأرض يمارسون حياتهم الطبيعية حتى يحين ميقات خروجهم للدلالة على أمارات الساعة كما أخبر بذلك الرسول ﷺ عن أبى الطفيل عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال اطلع النبى ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال ما تذاكرون قالوا نذكر الساعة قال إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات فذكر الدجال والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم ﷺ ويأجوج ومأجوج وثلاث خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم(٤)

ولما كان الحديث عن هؤلاء أتى ضمن الحديث عن ذى القرنين وماجاء عن ذى القرنين فى الآيات القرآنية هو بعض خبره بدليل قوله «سأتلوا عليكم منه ذكرا» فمن هنا للتبعيض أى بعض خبره فيكون خبر يأجوج

(١) سورة نوح آية ٢٦
(٢) سورة العنكبوت آية ١٥
(٣) سورة الصافات آية ٧٧
(٤) صحيح مسلم جـ ١٨ صـ ٢٧، ٢٨

ومأجوج هو بعض أخبارهم ومن جهة أخرى إنهم أمارات كبرى للساعة وأمر الساعة مغيب عن الخلائق فهم من الأمور الغيبية التى لا يعلمها إلا الله .

وهم من البشر :

يقول الحافظ بن كثير فى البداية والنهاية « ومن زعم أن يأجوج ومأجوج خلقوا من نطفة آدم حين احتلم فاختلط بتراب فخلقوا من ذلك وأنهم ليسوا من حواء – فهو قول حكاه الشيخ أبو زكريا النواوى فى شرح مسلم وغيره وضعفوه وهو جدير بذلك إذ لا دليل عليه بل هو مخالف لما ذكرناه : من أن جميع الناس اليوم من ذرية نوح بنص القرآن وهكذا من زعم أنهم على أشكال مختلفة وأطوال متباينة جداً . فمنهم من هو كالنخلة السحوق ومنهم من هو غاية فى القصر ومن يفترش أذنا من أذنيه ويتغطى بالأخرى فكل هذه أقوال بلا دليل ورجم بالغيب بغير برهان والصحيح أنهم من بنى آدم وعلى أشكالهم وصفاتهم وقد قال النبى ﷺ «إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعا ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » وهذا فيصل فى هذا الباب وغيره . وما قيل من أن أحدهم لا يموت حتى يرى من ذريته ألفا فإن صح فى خبر قلنا به وإلا فلا نرده إذ يحتمله العقل والنقل أيضاً قد يرشد إليه .

فإن قيل كيف دل الحديث المتفق عليه أنهم فداء المؤمنين يوم القيامة وأنهم فى النار ولم يبعث إليهم رسل ؟ وقد قال الله تعالى «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »(١) فالجواب أنهم لا يعذبون إلا بعد قيام الحجة عليهم والإعذار إليهم كما قال تعالى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » فإن

(١) سورة الإسراء آية ١٥

كانوا فى الزمن قبل بعث محمد ﷺ قد أتتهم رسل منهم فقد قامت على أولئك الحجة وإن لم يكن قد بعث الله إليهم رسلا فهم فى حكم أهل الفترة ومن لم تبلغه الدعوة . وقد دل الحديث المروى من طرق عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ «إن من كان كذلك يمتحن فى عرصات القيامة . فمن أجاب الداعى دخل الجنة ومن أبى دخل النار» .

وقد أوردنا الحديث بطرقه وألفاظه وكلام الأئمة عليه عند قوله وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، وقد حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعرى إجماعا عن أهل السنة والجماعة وامتحانهم لا يقتضى نجاتهم ولا ينافى الأخبار عنهم بأنهم من أهل النار لأن الله يطلع رسوله ﷺ على ما يشاء من أمر الغيب وقد أطلعه على أن هؤلاء من أهـل الشقاء وأن سجاياهم تأبى قبول الحق والانقياد له فهم لا يجيبون الداعى إلى يوم القيامة فيعلم من هذا أنهم كانوا أشد تكذيبا للحق فى الدنيا ولو بلغهم فيها لأن فى عرصات القيامة ينقاد خلق ممن كان مكذباً فى الدنيا فإتباع الإيمان هناك لما يشاهد من الأهوال أولى وأحرى منه فى الدنيا والله أعلم(١) .

الحديث عن السد :

قال الله تعالى : (حتى إذا بلـغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا ، قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا . قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما ، آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتونى أفرغ عليه قطرا ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا ، قال

---

(١) البداية والنهاية حـ٢ صـ١٢٠ — ١٢١

هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا، وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا»(١).

يروى البخارى فى تفسير هذه الآيات فيقول (ويسألونك عن ذى القرنين — إلى قوله سببا) طريقا إلى قوله تعالى «آتونى زبر الحديد» واحدها «زبرة» وهى القطع «حتى إذا ساوى بين الصدفين» يقال عن ابن عباس الجبلين، والسدين : والجبلين : خرجا : أجرا «قال أنفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا» أصبب عليه رصاصا، ويقال الحديد ويقال الصفر وقال ابن عباس : النحاس «فما اسطاعوا أن يظهروه» يعلوه، اسطاع استفعل من طعت له فلذلك فتح استطاع يسطيع وقال بعضهم استطاع يستطيع «وما استطاعوا له نقبا . قال هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء» ألزقه بالأرض وناقة دكاء لاسنام لها والدكداك من الأرض مثله حتى صلب وتلبد قال رجل للنبى ﷺ رأيت السد مثل البرد(٢) المحبر قال قد رأيته»(٣) .

ولقد ذهب بعض العلماء إلى أنه سور الصين وهذا السور من حجارة ولكن نقول إن هذا السد موجود رغم أنه قيل إن كل شىء على الكرة الأرضية قد اكتشف والحقيقة أن هناك منطقتين ما زالتا يكتنفهما الغموض : قارة الدائرة القطبية الجنوبية وبعض الشمالية .

---

(١) سورة الكهف آية ٩٣ — ٩٩

(٢) البرد : بضم الباء ثوب مخطط والمحبر المحسن

(٣) فتح البارى حـ ٦ ص ٣٨١ باختصار

وقفة تأمل :

روى الإمام البخارى «عن عروة بن الزبير أن زينب بنت أبى سلمة حدثته عن أم حبيبة بنت أبى سفيان عن زينب بنت جحش رضى الله عنهن «أن النبى ﷺ دخل عليها فزعا يقول لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه — وحلق بإصبعه الإبهام والتى تليها — فقالت زينب بنت جحش فقلت يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال نعم إذا كثر الخبث »(١) .

وروى البخارى عن أبى هريرة (عن النبى ﷺ قال (فتح الله من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وعقد بيده تسعين)(٢) فيلزم من هذين الحديثين أن السد الذى يحجز يأجوج ومأجوج نقب فى عهد الرسول ﷺ والجواب عن ذلك من وجهين : —

الأول : أن الله قال عن السد « فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا » أى فى عهد ذى القرنين ، فالصيغتان بخبر الماضى ولا ينفى وقوعه فى المستقبل وينقب نقبانا فنا .

الثانى : أن قول الرسول ﷺ « فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج » كناية عن الفتن التى ألمت بالمسلمين وبدؤها من مقتل عثمان « وقتال المسلمين بعضهم بعضا فى موقعة الجمل وصفين وغيرهما .

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه « قال : إن يأجوج ومأجوج ليحفرن السد كل يوم حتى إذا كادوا

---

(١) فتح البارى ح٦ ص ٣٨١

(٢) فتح البارى ج ٦ ص ٣٨٢

يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غداً فيعودون إليه كأشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله عز وجل أن يبعثهم إلى الناس وفي رواية على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم إرجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله تعالى ويستثنى فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون المياه ويتحصن الناس منهم في حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع وعليها كهيئة الدم فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيبعث الله عليهم نغفا في أقفائهم فيقتلهم بها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن شكراً من لحومهم ودمائهم)(١)

وهذا الحديث ذكر نحوه الإمام الترمذي وقال حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه

ولقد علق الحافظ ابن كثير عليهما . فقال : (فإن لم يكن رفع هذا الحديث محفوظاً — وإنما هو مأخوذ عن كعب الأحبار كما قاله بعضهم فقد استرحنا من المؤنة — وإن كان محفوظاً فيكون محمولا على أن صنيعهم هذا يكون في آخر الزمان عند اقتراب خروجهم كما هو المروى عن كعب الأحبار)(٢)

---

(١) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني جـ ٢٤ ص ٩٠، ٩١

(٢) البداية والنهاية في التاريخ جـ ٢ ص ١٢٣، ١٢٤

قصة ذى القرنين كما صورها القرآن الكريم :

قال تعالى (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا . إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شيء سببا . فأتبع سببا . حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجدعندها قوما قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ثم أتبع سببا . حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا ، ثم أتبع سببا ، حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا . قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما ، آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا ، قال هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا ، وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا ، الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا) (١) .

---

(١) سورة الكهف آية ٨٣ — ١٠١

سبب نزول هذه الآيات:

يروى ابن جرير عن أبي كريب عن يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق قال ثنى شيخ من أهل مصر قدم منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس فيما يروى أبو جعفر الطبرى (قال — أى — ابن عباس — بعثت قريش النضر بن الحرث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهم سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجنا حتى قدما المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره وبعض قوله وقالا إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا قال فقالت لهم أحبار يهود سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجيب وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وسلوه عن الروح ما هو فإن أخبركم بذلك فإنه نبى فاتبعوه وإن هو لم يخبركم فهو رجل متقول فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم فأقبل النضر وعقبة حتى قدما مكة على قريش فقالا يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد أخبرنا فسألوه عما أمروهم به فقال لهم رسول الله ﷺ أخبركم غداً بما سألتم عنه ولم يستثن فانصرفوا عنه فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه فى ذلك وحياً ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة وقالوا وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشىء مما سألنا عنه وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحى

عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب أهل الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف، وقول الله عز وجل ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) (١) .

المباحث العربية

« ويسألونك عن ذى القرنين » السائلون هم اليهود على لسان قريش « قل سأتلوا عليكم منه ذكرا » معناه سأقص عليكم من حاله خبرا إن أنزل على فيه وحيا .

« إنا مكنا له فى الأرض » أى سهلنا له أمره من التصرف كيف يشاء « وآتيناه من كل شئ سببا » السبب هو الحبل الذى يصعد به النخل، ثم استعير لكل مايتوصل به إلى المقصود ويندرج تحته العلم والقدرة وسببا مفعول ثان لآتينا ولقد ذهب كعب الأحبار إلى أنه كان يربط خيله بالثريا وأنكر عليه معاوية بن أبى سفيان ذلك وهو لا يجوز كيف يربط خيله بجسم ملتهب وهذا من الإسرائيليات .

« فأتبع سببا » المعنى : لما آتيناه من كل شئ سببه فإذا أراد شيئا أتبع سببا يوصله إليه ويقربه منه .

ولقد قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر « فاتبع » بهمزة وصل وتشديد التاء وقرأ الباقون بقطع الهمزة وتخفيف التاء وسكونها .

« حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة » أى أعطاه الله من الأسباب إلى أن وصل آخر العمار من الأرض وانتهى به المطاف

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٥ ص ١٢٧ ، ١٢٨

إلى الساحل المطل على المحيط، فلم يبق أمامه سوى الماء فوجد الشمس تغرب وشاهد الغروب وكما يشاهد الإنسان الشمس وهى تغيب لحمرتها تنعكس فى الماء فكأنه يرى الماء أحمر وهى تغرب فى نفس الجزء الأحمر فيرى الإنسان أنها تغرب فى عين حامية ، أو أن الإنسان يراها تغرب فى البحر وهو بالنسبة إلى ما هو أعظم منه فى علم الله عين ماء .

لطيفه :

قال تعالى « تغرب فى عين حمئة » فهل تغرب هذه الشمس التى تكبر الأرض بأكثر من مليون مرة فى عين حمئه ، القرآن يصور الشمس فى نظر ذى القرنين وقال عنه « وجدها تغرب » ، وليس هـذا حقيقة علمية قرآنية بل الأرض تدور حول محورها أمام الشمس فالجزء الذى يكون مقابلا للشمس يكون نهارا وحينما يبدأ فى البعد عن الشمس يكون الغروب وبعد ذلك يكون الليل فى الجزء الذى لا يقابل الشمس .

وفى قوله «حمئة» قراءتان مشهورتان فمن قرأ بايهما فهو مصيب فقراءة حمئة من الحمأ وهو الطين ويكون التفسير أن هناك مسافة من عند الساحل الذى يقف عليه ذو القرنين إلى مسافات طويلة ضاربة فى عمق المحيط وهذه المسافات ضحلة ، الماء فيها قليل يقاس بالسنتيمترات فتكون طينا ووجد الشمس تغرب فكأنها تغرب فى ماء وطين .

وأما القراءة الثانية فهى قراءة ابن عباس « وجدها تغرب فى عين حامية » لقد سبق معنى ذلك .

« ووجد عندها قوما » أى وجد عند الساحل وفى المكان الذى تغرب فيه الشمس قوما أى أمة من الأمم ذكر ابن كثير (أنها كانت أمة عظيمة من بنى آدم)(١) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم جـ ٣ صـ ١٠٢

وذكر أبو السعود فقال (قيل كان لباسهم جلود الوحوش وطعامهم مالفظه البحر وكانوا كفاراً فخيره الله جل ذكره بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوهم إلى الإيمان)(١)

« قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب » القائل هو الله عن طريق نبي فى ذلك العصر أو عن طريق الإلهام .

إما أن تعذب » إما هنا التخيير . أى إما أن تعذب هؤلاء بالقتل « وإما أن تتخذ فيهم حسنا » أى تمن عليهم أو تقبل فيهم الفداء .

وهذا يدل على أن الله مكنه منهم وحكمه فيهم، يقول أبو السعود (« وإما أن تتخذ فيهم حسنا » أى أمراً ذا حسن على حذف المضاف أو على طريقة إطلاق المصدر على موصوفه مبالغة وذلك بالدعوة إلى الإسلام والارشاد إلى الشرائع . ومحل أن مع صلته إما الرفع على الابتداء أو الخبرية وإما النصب على المفعولية أى إماتعذيبك واقع وإما أمرك تعذيبك أو إما تفعل تعذيبك وهكذا الحال فى الاتخاذ ومن لم يقل بنبوته قال كان ذلك الخطاب بواسطة نبى فى ذلك العصر أو كان ذلك إلهاماً لا وحيا)(٢)

« أما من ظلم فسوف نعذبه » قال ذو القرنين « أما » هنا للتفصيل « من ظلم » نفسه بالشرك واستمر عليه ولم يؤمن « فسوف نعذبه » بالقتل فى الدنيا . « ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا » عبر بثم للتراخى لوقوع حياة البرزخ بين القتل وبين بعثهم .

«ثم يرد إلى ربه» «فى الآخرة فيعذبه عذابا نكرا» فظيعا وقرىء بسكون النون وضمها.

---

(١) تفسير العلامة أبى السعود ج ٣ ص ٤٠٢

(٢) المرجع السابق

يقول أبو السعود (وفيه دلالة ظاهرة على أن الخطاب لم يكن بطريق الوحي إليه وأن مقالته كانت مع النبي — أي في ذلك الزمان — أو مع من عنده من أهل مشورته)(١)

« وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى »

وأما هنا للتفصيل أيضاً . آمن أي صدق وعمل عملا صالحاً .

« فله جزاء الحسنى » يقول أبو البقاء العكبري (« فله جزاء الحسنى » يقرأ بالرفع والإضافة — أي رفع جزاء وإضافة الحسنى إليه — وهو مبتدأ أو مرفوع بالظرف والتقدير فله جزاء الخصلة الحسنى ويقرأ بالرفع والتنوين والحسنى بدل أو خبر مبتدأ محذوف ويقرأ بالنصب والتنوين أي فله الحسنى جزاء فهو مصدر في موضع الحال أي مجزياً بها وقيل هو مصدر على المعنى أي يجزى بها جزاء وقيل تمييز ويقرأ بالنصب من غير تنوين وهو مثل المنون إلا أنه حذف التنوين لالتقاء الساكنين)(٢) والمعنى فله المثوبة الحسنى أو الجنة جزاء أو الخصلة الحسنى .

« وسنقول له من أمرنا يسرا » أي وسنقول لمن آمن وعمل صالحا من أمرنا ، أي مما أمرنا به « يسراً » سهلا لينا . والمصدر يحتمل أن يكون صفة لموصوف محذوف والتقدير قولا يسرا ويحتمل أن يكون ذا يسر أو أطلق المصدر للمبالغة .

« ثم اتبع سببا » أي سلك طريقا راجعاً من مغرب الشمس قاصداً المشرق .

---

(١) المرجع السابق ج ٣ ص ٤٠٣

(٢) الفتوحات الإلهية هامش ج ٣ ص ٥٣٥ ، ٥٣٦

« حتى إذا بلغ مطلع الشمس » أى أول جزء من الأرض تطلع عليه الشمس « وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً » أى سترا من اللباس والبناء (أى ليس لهم بناء يكنهم ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس وقال سعيد بن جبير كانوا حمرا قصارا مساكنهم الغيران أكثر معيشتهم من السمك)(١).

« كذلك » اسم الإشارة مشار به إلى الحديث السابق عن ذى القرنين والكاف حرف جر واسم الإشارة مجرور بها والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف والتقدير والأمر كذلك أى كما قلنا. « وقد أحطنا بما لديه خبرا » الواو للاستئناف والجملة بعد الواو مستأنفة والمعنى ولقد بلغ عنده من الآلات والجنود وغيرها مبلغا كبيرا لا يحيط بها علما إلا الله ، خبيرا علما.

« ثم أتبع سببا حتى إذا بلغ بين السدين » ثم إن ذا القرنين لما بلغ المشرق والمغرب اتبع طريقا آخر من جهة الشمال فى إرادة ناحيـــة السد مخرج يأجوج ومأجوج واستمر آخذا فيه حتى إذا بلغ فى سيره ذلك بين السدين أى الجبلين.

ولقد اختلف فى هذا المكان فقال ابن كثير. (حتى إذا بلغ بين السدين وهما جبلان متناوحان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك فيعيثون فيها فسادا ويهلكون الحرث والنسل)(٢).

وقال صاحب الفتوحات (اتبع سببا آخر من جهة الشمال فى إرادة ناحية السد مخرج يأجوج ومأجوج واستمر آخذاً فيه حتى إذا بلغ فى

---

(١) تفسير القرآن العظيم جـ ٣ صـ ١٠٣
(٢) المرجع السابق

مسيرة ذلك بين السدين أى الجبلين وهما جبلا أرمينية وأذربيجان .(١)

وقيل هما جبلان فى أواخر الشمال وقيل هذا المكان فى منقطع بلاد الترك من ورائهما يأجوج ومأجوج : قال الرازى والأظهر أن موضع السد فى ناحية الشمال سد الإسكندر ومابينهما .(٢) فيكون المراد بالسدين الجبلين وهما أملسان لا يستطاع الصعود عليهما وسمى الواحد سداً لسده فجاج الأرض .

« وجد من دونهما قوماً لايكادون يفقهون قولا قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض » أى وجد ذو القرنين أمامهما من جهة خارجة وليس من جهة يأجوج ومأجوج قوماً (لايكادون يفقهون قولا » أى لا يفهمون إلا بعد بطء وقرىء بضم الياء وكسر القاف « قالوا ياذا القرنين أى قال القوم ياذا القرنين إن » يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض» (قرأ عاصم بالهمزة الساكنة والباقون بألف صريحة واختلف فى ذلك فقيل هما أعجميان لاشتقاق لهما ومنعا من الصرف للعلمية والعجمة ويحتمل أن تكون الهمزة أصلا والألف بدلا عنها أو بالعكس لأن العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية وقيل بل هما عربيان واختلف فى اشتقاقهما فقيل اشتقاقهما من أجيج النار وهو التهابها وشدة توقدها وقيل من الأوجه وهى الاختلاط أوشدة الحروقيل من الأوج وهو سرعة العدو سمين (٣) : ومعنى « مفسدون فى الأرض يعيثون فى الأرض فسادا فينهبون ويبغون على هؤلاء القوم .

« فهل نجعل لك خرجا » الخرج والخراج اسم لما يخرج من الأرض

---

(١) وهما فى الاتحاد السوفيتى وأرمينية يقطنها المسيحيون وأذربيجان يقطنها المسلمون

(٢) الفتوحات الإلهية حـ ٣ صـ ٤٥ ، ٤٦

(٣) الفتوحات الإلهية حـ ٣ صـ ٤٦

ومن وكر الحيوان والخرج أعم من الخراج أى نجعل لك جعلا من المال وقرىء فهل نجعل لك خراجا « على أن تجعل بيننا وبينهم سدا » أى حاجزاً فلا يصلون إلينا « قال مامكنى فيه » فى هذه الجملة قراءتان قراءة بالادغام أى بإدغام النونين : والقراءة الثانية من غير إدغام « مامكنى » أى جعل لى قدرة على السيطرة « فيه ربى » من المال وغيره « خير » أفضل » والمعنى: مامنحه الله لى وأعطانى السيطرة على كثير من الأسباب والمال وغيره أفضل من خرجكم فلا حاجة لى إلى خرجكم واجعل لكم السد تبرعا .

« فأعينونى بقوة » الفاء للاستئناف والمعنى لا أريد المال بل أعينونى بأبدانكم وقوتكم .

« أجعل بينكم وبينهم ردما » أى حاجزاً حصينا والردم هو سد الثلمة بالحجز « آتونى زبر الحديد » أى جيئونى بزبر الحديد : قطعة على قدر الحجارة التى يبنى بها . فبنى بها وجعل بينهما الحطب والفحم وقرىء إئتونى بهمزة وصل من أتى يأتى فى الموضعين « آتونى زبر الحديد » « قال آتونى أفرغ عليه قطراً » « حتى إذا ساوى بين الصدفين » حتى إذا ساوى بزبر الحديد بين جانبى الجبلين « قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً » أى قال انفخوا فنفخوا حتى إذا جعله « أى حتى جعل زبر الحديد كالنار وهذا تشبيه بليغ حيث حذف منه الوجه والأداء .

« قال آتونى أفرغ قطرا » القطر هو النحاس المذاب ولقد تنازعه الفعلان آتونى وأفرغ فحذف من الأول وأعمل الثانى لدلالته على الأول » فصب النحاس المذاب على الحديد المحمى فدخل بين قطعه فصار شيئاً واحداً .

« فاسطاعوا أن يظهروه » الفاء للاستئناف وما نافية والمعنى فما استطاع يأجوج ومأجوج من أن يعلو ظهره لارتفاعه وملاسته « وما استطاعوا له نقبا » وما استطاعوا له خرقا لصلابته وغلظه ، ولقد عبر فى الجملة الأولى

« اسطاع » لأن علو السد شاق وأشق منه نقبه لذلك حذف التاء من الأول وأضافها إلى الثانى لأن زيادة المبنى يدل على زيادة المعنى .

« قال هذا رحمة من ربى » قال ذو القرنين واسم الإشارة مشار به إلى السد والمراد بالرحمة هنا هى النعمة : قال ذو القرنين هذا السد نعمة من ربى لأنه يمنع من أذى يأجوج ومأجوج فالجار والمجرور صفة لرحمة « فإذا جاء وعد ربى » أى فإذا حضر ماوعد به الله تعالى وهو خروجهم عند قرب الساعة قال تعالى، حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين .(١)

« جعله دكاء وكان وعد ربى حقا » « دكاء » مسوى أى جعله مسوى والدك هو الأرض اللينة السهلة وجمع دكاء والدك ، والمعنى جعله مدكوكا مبسوطا مستويا وكان وعد ربى كائناً واقعاً فيخرجون فيعيثون فى الأرض فسادا ووعد اسم كان وحقا خبره .

معنى الآيات

سئل الرسول ﷺ عن ذى القرنين فأخبره الله سبحانه بأنه مكن له فى الأرض فأعطاه الله سلطانا وطيد الدعائم ويسر له أسباب الحكم والفتح وأسباب البناء والعمران وكل ماهو من شأن البشر من الأسباب « فاتبع سببا » أى مضى فى وجه بما هو ميسر له وولى وجهه شطر المغرب حتى انتهى به المطاف إلى شاطىء المحيط الأطلنطى إلى المكان الذى يرى فيه الرائى أن الشمس تغرب عنده وراء الافق وهو يختلف بحسب مواضع الأرض فبعض الناس إن كان بالقرب من جبل فإنه يراها تغرب خلفه وبعضهم إن كان فى

---

(١) سورة الأنبياء آية ٩٦ ، ٩٧

تغرب فى الرمال وبعضهم إن كان على شاطىء البحر والمحيط فإنه يراها تغرب. الصحراء يراها تغرب فى عين حارة وإن كان بين وقوفه وبين الماء طين على مساحات هائلة فإنه يراها تغرب فى طين وماء .

«حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة » ووجد قوما فقال الله له إما أن تعذب القوم المشركين بالقتل وإما أن تتخذ فيهم حسنا عندما يؤمنون فقال ذو القرنين أما من ظلم وجعل الشرك له سبيلا فسوف نقتله ثم يرد إلى خالقه ومربيه فيعذبه عذابا شديداً ، وأما من آمن بالله وعمل عملا صالحا فله جزاء حسن المعاملة الطيبة فى الدنيا والجنة فى الآخرة وسنأمره بما يسهل عليه وسنقول له من أمرنا يسرا ، ثم اتجه نحو المشرق حتى بلغ أقصاه وفى هذا المكان شاهد موضع طلوعها فوجدها تطلع على قوم ليس لديهم أستار تحميهم منها سواء كانت لباساً أم بناء فهم عراة الأجسام فأواهم الكهوف فالأمر كما قلنا وقد علمنا بما لديه من العتاد والرجال، ولقد طبق فيهم ذو القرنين القانون السابق الذى استعمله مع قوم المغرب، ثم أتبع سببا حتى إذا وصل بين الجبلين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولا . فتوسموا فيه القدرة والصلاح فعرضوا عليه أن يقيم لهم سداً فى وجه يأجوج ومأجوج الذين دأبوا على مهاجمتهم، ويغيرون عليهم من ممر بين الجبلين فيعيثون فى أرضهم فساداً ولا يقدرون هم على صد غاراتهم فقالوا له هل نجعل لك شيئا من المال على أن تقيم بيننا وبين يأجوج ومأجوج سداً فقال لهم ما منحنى الله من القدرة والصلاح والإيمان خير من خرجكم ، بيد أنه تبرع ببنائه على أن يدرأ شراً عن البشر سيظل رتاجه موصود إلى قرب قيام الساعة فرحم الله ذا القرنين وشتان بينه وبين من صنع القنابل النووية. فذاك حمى البشر وهذا دمر البشر وتسبب هذا فى المجاعات حيث أثرت التجارب النووية على مناخ الكرة الأرضية فباتت قارة إفريقيا مهددة بانقطاع الأمطار التى يجرى على أثرها فيضان ماء النيل ، وأغرقت الفيضانات مناطق أخرى من الأرض .

وقال ذو القرنين ولكن أعينونى بقوتكم المادية والعضلية فأجعل

بينكم وبينهم ردما ، أتونى بقطع الحديد فجمعوا له قطع الحديد ووضعوها في الفتحة حتى إذا ساوى بين جانبى قتى الجبلين قال انفخوا حتى إذا شابه النار فى توهجه واحمراره قال آتونى أفرغ عليه نحاساً مذابا فيتخلل الحديد المصهور فيزيده صلابة وملاسة فما اسطاعوا أن يعلوه وما استطاعوا له خرقا ، فلما فعل ذلك قال هذا السد رحمة من ربى فإذا حضر ماوعد به ربى من قيام الساعة هدمه وسواه وكان وعد ربى حقا كائنا واقعا .

العلم الثانى

مؤمن آل فرعون

هذه الشخصية برزت فى وقت دعته الأحداث إلى الظهور على صعيدها وقعت بين الطاغية فرعون وبين نبى الله موسى عليه وعلى نبينا السلام حين أراد الطاغية أن ينهى الأحداث مع نبى الله موسى بقتله وظهرت تلك الشخصية لتدخل مع الطاغية وحزبه جولة ضخمة جالها الرجل مع المتآمرين من فرعون وملئه وإنه حاورهم من منطق الفطرة التى فطر الله الناس عليها وهى فطرة التوحيد وسلك مسلكا عقلياً قبل القوم فأبرع فكان خير متحدث وسيأتى إن شاء الله منهجه فى دعوته لقومه .

اسم الرجل :

قال السيوطى فى مفحمات الأقران فى مبهمات القرآن (« وجاء رجل من أقصى المدينة »[1] قال الضحاك هو مؤمن آل فرعون وقال شعيب الجبائى اسمه شمعون . وقال ابن إسحاق سمعان — بالسين — أخرجهما ابن أبى حاتم . قال السهيلى وشمعان أصح ما قيل فيه . وقال الدارقطنى لا يعرف شمعان بالمعجمة إلا مؤمن آل فرعون . وفى تاريخ الطبرانى أن اسمه حبير — بالمهملة ومثناة تحتية — وقيل حبيب وقيل حزقيل)[2] .

ولقد ساق ابن جرير رأيين فى الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يخبره بالمؤامرة التى تدعو إلى قتله .

---

(١) القصص آيه ٢٠

(٢) مفحمات الأقران فى مبهمات القرآن على هامش الفتوحات الإلهية ج ٤ ص ٥٨١

الرأى الأول :

أن هذا الرجل كان من شيعة موسى ولقد اتجه هذا الاتجاه سعيد ابن جبير وروى ذلك عن ابن عباس (قال انطلق الفرعونى الذى كان يقابل الإسرائيلى إلى قومه فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلى من الخبر حين يقول أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس فأرسل فرعون الذباحين لقتل موسى فأخذوا الطريق الأعظم وهم لا يخافون أن يفوتهم وكان رجل من شيعة موسى فى أقصى المدينة فاختصر طريقا إلى موسى فأخبره الخبر)(١) .

الرأى الثانى :

أن هذا الرجل هو مؤمن آل فرعون ولقد ذهب إلى هذا ابن جريج (حدثنا القاسم قال ثنا الحسين قال ثنى حجاج عن ابن جريج قال سمع ذلك عدو فأفشى عليهما وقوله « وجاء رجل» ذكر أنه مؤمن آل فرعون وكان اسمه فيما قيل سمعان وقال بعضهم بل كان اسمه شمعون)(٢) ولقد ذهب إلى هذا القرطبى فى تفسيره .

والذى أراه :

أن الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى يقول لموسى « إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين »(٣) ليس مؤمن آل فرعون .

والدليل على ذلك ما يأتى :

١ — أن الذين ائتمروا به كانوا يبغون الانتقام منه على قتله الرجل

---

(١) تفسير الطبرى حـ ٢٠ صـ ٣٣

(٢) المرجع السابق

(٣) القصص آيه ٢٠

الذى وكزه فقتله فعرف أهل القتيل وهموا بقتله فأتاه رجل من شيعته فأخبره وأمره بالخروج فاتجه موسى إلى مدين يصور القرآن هذه الاحداث فيقول :

(ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين . فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين . فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ، وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين)(١) فلم يكن موسى نبياً حتى يكون هناك مؤمنون به وأما الرسالة فكانت بعد أن قضى ثمان سنين أو عشر سنين . وعاد بأهله وفى الطريق عند الوادى كان أول لقاء بين السماء وموسى قال تعالى : — (وهل أتاك حديث موسى . إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودى ياموسى . إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى)(٢) .

فبدأت الرسالة أثناء عودته إلى مصر وبدأ الاحتكاك بفرعون فهذا دليل على أن الرجل الذى جاء من أقصى المدينة ليس مؤمن آل فرعون

---

(١) القصص آية ١٤ — ٢٠ (٢) طه آية ٩ — ١٣

بل هو رجل غيره وهو من بني إسرائيل كما صرح بذلك ابن عباس رضي الله عنهما .

٢ — التعبير بكلمة رجل دون وصفه بالمؤمن يدل على أنه مغاير لمؤمن آل فرعون لأن كل حديث القرآن عن مؤمن آل فرعون يتحدث عنه باسم المؤمن وفي كل آية يتحدث عنه بذكر اسمه فيقول «وقال رجل مؤمن» ويقول «وقال الذي آمن» وهذا يدل على أن الرجل الذي حذره غير مؤمن آل فرعون ، فلو كان مؤمن آل فرعون هو الذي حذره لقال الله تعالى وجاء الذي آمن من أقصى المدينة يسعى ولكنه لم يقل ذلك .

عشيرة المؤمن :

لقد ساق ابن جرير آراء العلماء في عشيرته فقال (اختلف أهل العلم في هذا الرجل المؤمن فقال بعضهم كان من قوم فرعون غير أنه كان قد آمن بموسى وكان يسر إيمانه ويكتمه من فرعون وقومه خوفا على نفسه، ذكر من قال ذلك : حدثنا محمد قال ثنا أحمد قال ثنا أسباط عن السدي « وقال رجل مؤمن من آل فرعون » : قال هو ابن عم فرعون ويقال هو الذي نجا مع موسى فمن قال هذا القول وتأول هذا التأويل كان صوابا بالوقف إذا أراد القارىء الوقف على قوله «من آل فرعون» لأن ذلك خبر متناه قد تم وقال آخرون بل كان الرجل إسرائيليا ولكنه كان يكتم إيمانه من آل فرعون ، والصواب لهذا القول لمن أراد الوقف أن يجعل وقفه على قوله يكتم إيمانه لأن قوله من آل فرعون صلة لقوله يكتم إيمانه وقد ذكر أن اسم هذا الرجل المؤمن من آل فرعون جبريل كذلك حدثنا ابن حميد قال ثنا سلمة عن ابن إسحاق ، وأولى القولين في ذلك بالصواب عندي القول الذي قاله السدي من أن الرجل المؤمن كان من آل فرعون)(١).

---

(١) تفسير الطبري ح ٢٤ ص ٣٧

والذى أراه :

أن الرجل المؤمن كان من آل فرعون لما يأتى :

١ — لقد رجح ذلك الطبرى فقال (وأولى القولين فى ذلك بالصواب عندى القول الذى قاله السدى من أن الرجل المؤمن كان من آل فرعون قد أصغى لكلامه واستمع منه ماقاله وتوقف عن قتل موسى عند نهيه عن قتله ماقال له ما رأيكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ولو كان إسرائيلياً لكان حرياً أن يعاجل هذا القائل له ولملئه ما قال بالعقوبة على قوله لأنه لم يكن يستنصح بنى إسرائيل لاعتداده إياهم أعداء له فكيف بقوله عن قتل موسى لو وجد إليه سبيلا ولكنه لما كان من ملأ استمع قوله وكف عما كان هم به فى موسى)(١).

٢ — لقد استعمل المؤمن فى ندائه على قومه أسلوباً يوحى بأنه من آل فرعون وليس من بنى إسرائيل وهذا الأسلوب تردد على لسانه كثيراً فقال «ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض» وقال « ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب » وقال « وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد » وقال : « ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد » وقال « ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع» وقال« وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار » .

٣ — أن الآية تقول « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه» فإعراب الجار والمجرور يكون على أنه فى محل رفع صفة ثانية لرجل، ويجوز أن يكون الجار والمجرور متعلقا بالفعل يكتم ويكون المعنى على هذا الإعراب وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون وهذا الذى ذهب

(١) المرجع السابق .

القائلون بأنه ليس من آل فرعون بل هو من بنى إسرائيل ، والإعراب الأول أولى .

٤ — (قال القشيرى ومن جعله إسرائيليا ففيه بعد لأنه يقال كتمه أمر كذا ولا يقال كتم منه قال الله تعالى ، ولا يكتمون الله حديثاً ، وأيضاً ما كان فرعون يحتمل من بنى إسرائيل هذا القول)(١).

منهج مؤمن آل فرعون فى دعوة قومه :

لقد اتبع مؤمن آل فرعون فى دعوته منهجاً يكاد يكون مواكباً لدعوة الرسل فما دعاه الرسل يتمثل فى : —

١ — الدعوة إلى التوحيد .

٢ — إثبات رسالة الرسول .

٣ — إثبات البعث .

٤ — الدعوة إلى عبادة الله سبحانه .

٥ — الدعوة إلى مكارم الأخلاق .

هذا مادعا إليه الرسل وإذا طفقنا نسبر غور الآيات القرآنية المتحدثة عن مؤمن آل فرعون وجدنا هذه الأمور فى تلك الآيات .

١ — قال تعالى (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله) .

فهذه لفتة منه إلى توحيد الله سبحانه .

---

(١) الفتوحات الإلهية حـ ٤ صـ ١٢

٢ — (وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب) وهذه مناقشة للقوم لإثبات رسالة موسى .

٣ — (وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد) وقوله (ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وأن الآخرة هى دار القرار من عمل سيئة فلايجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب) وهذه الآيات تثبت البعث لقومه.

٤ — (وقال الذى آمن ياقوم اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد) فهذه الآية تدعو إلى عبادة الله والدعوة إلى مكارم الأخلاق اللذين ينتهجهما مؤمن آل فرعون مستضيئاً بما جاء به موسى ودارجاً على توراته .

تفسير الآيات الواردة فى شأنه

مناقشة القوم لإثبات رسالة موسى :

(وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب، ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد).

مناسبة الآية بما قبلها :

لقد سبق هذه الآيات قول الله تعالى (وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد وقال

موسى إنى عـذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) ، ولقد انتهت الآيات باستعاذة موسى بربه من فرعون وغيره من الكفرة وفى هذه الآيات يبين الله سبحانه أنه لما استعاذ به قيض له من تصدى لمنع فرعون وحاجه فى أمر موسى .

المباحث العربية

« يكتم إيمانه » هذه الجملة حال من رجل ولا يعترض بأنه نكره فإنها نكرة موصوفة فتصير معرفة ، والمعنى يسر إيمـانه ويخفيه عن عشيرته

« أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله » .

الاستفهام للإنكار وقوله « أن يقول » يحتمل فيهـا وجهان من الإعراب : —

١ — أن أن وما دخلت عليها فى تأويل مصدر هو مفعول لأجله والمعنى أتقتلون رجلا لأجل قوله ربى الله وجملة « ربى الله » فرب مبتدأ وياء المتكلم مضاف إليه والله خبره ، والجملة فى محل نصب مقول القول .

٢ — (قدر الزمخشرى ظرفا مضافا أى وقت أن يقول ، ورد بأن ذلك إنما يكون مع المصدر المصرح به نحو جئتك مقدم الحـاج لا مع المقدر فلا تقول أجيئك أن يصيح الديك تريد وقت صياحه نص على ذلك النحاة وقال الإمام تاج الدين بن مكتوم أجاز ابن جنى ذلك)(١) .

« وقد جاءكم بالبينات من ربكم » .

الواو واو الحـال وقد حرف تحقيق والجملة فى محل نصب حـال .

---

(١) المرجع السابق ص١٣٤١٢

وصاحب الحال إما أن يكون الفاعل فى «أن يقول» وهو ضمير مستتر تقديره هو ويعود على «رجلا» وهو موسى ، وإما أن يكون من «رجلا» ولا يقدح فيه أن نقول إنه نكرة لوقوعه فى حيز الاستفهام وكل ماسوغ الابتداء بالنكرة سوغ انتصاب الحال منها .

والمراد بالبينات المعجزات الواضحات التى تدل على رسالة موسى عليه السلام وهى : —

١ — عصا موسى .

٢ — اليد .

٣ — أخذهم بالسنين أى سنى الجوع .

٤ — نقص الثمرات فالأشجار أصبحت عقيمة لا تثمر .

٥ — إرسال الطوفان عليهم .

٦ — إرسال الجراد .

٧ — إرسال القمل .

٨ — إرسال الضفادع .

٩ — جعل مياههم دما .

فمن الآية الأولى والثانية يقول الله تعالى (وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ، أسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين)(١) .

---

(١) القصص آية ٣١ ، ٣٢

وقال تعالى عن الآيات السبع الأخرى (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن اكثرهم لا يعلمون . وقالوا مهما تأتنا به من آيه لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ، فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) (١) .

وقال تعالى عن هذه الآيات بجملة مجتمعة (وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين) (٢) .

وقال تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحورا) (٣) .

يقول ابن كثير (وقال الإمام أبو جعفر بن جرير فيما يروى عن سعيد بن جبير قال : لما أتى موسى فرعون قال له أرسل معى بنى اسرائيل فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر فصب عليهم منه شيئا خافوا أن يكون عذابا فقالوا لموسى ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا ربه فلم يؤمنوا ولم يرسلوا بنى إسرائيل فأنبت لهم فى تلك السنة شيئا لم ينبته قبل ذلك من الزرع والثمار والكلأ فقالوا هذا ما كنا نتمنى فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلأ فلما رأوا أثره فى الكلأ عرفوا أنه لا يبقى الزرع فقالوا ياموسى ادع لنا ربك يكشف عنا

---

(١) سورة الأعراف آية ١٣٠ — ١٠٣
(٢) سورة النمل آية — ١٢
(٣) سورة الإسراء آية ١٠١

الجراد فنؤمن لك و نرسل معك بنى إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم الجراد فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل فداسوا وأحرزوا فى البيوت فقالوا قد أحرزنا فأرسل الله عليهم القمل وهو السوس الذى يخرج منه فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلم يرد منها إلا ثلاثة أقفزه .

فقالوا ياموسى ادع لنا ربك يكشف عنا القمل فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فأبوا أن يرسلوا معه بنى إسرائيل فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع فقال لفرعون ماتلقى أنت وقومك من هذا فقال وماعسى أن يكون كيد هذا فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه فى الضفادع ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع فى فيه فقالوا لموسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل فلم يؤمنوا وأرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار وما كان فى أوعيتهم وجدوه دما عبيطا فشكوا إلى فرعون فقالوا قد ابتلينا بالدم وليس لنا شراب فقال إنه قد سحركم فقالوا من أين سحرنا ونحن لانجد فى أوعنا شيئا من الماء إلا وجدناه دما عبيطا فأتوه وقالوا ياموسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل) (١).

قوله « وإن يك كاذبا فعليه كذبه » .

« إن » شرطيه ، « يك » فعل الشرط وهو مجزوم وعلامة جزمه السكون وحذفت النون للتخفيف وجواب الشرط محذوف والتقدير فلن تتحملوا كذبه فعليه كذبه لاعليكم . لجملة فعليه كذبه معطوفة على جملة الجواب وكاذبا

---

(١) ابن كثير فى تفسيره ج٢ ص٢٤١

خبر يك . والمعنى فضرر كذبه راجع عليه لا يتخطاه إليكم . « وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم » وجملة يصبكم جواب الشرط وبعض الذى يعدكم » أى إن كان صادقا فلا أقل من إصابة بعض العذاب لكم بسبب تكذيبه .

يقول الزمخشرى فى تفسيره (فإن قلت : لم قال بعض « الذى يعدكم » وهو نبى صادق لابد لما يعدهم أن يصيبهم كله لا بعضه ؟ قلت لأنه احتاج فى مقاومة خصوم موسى ومناكريه إلى أن يلاوصهم (١) ويداريهم ويسلك معهم طريق الإنصاف فى القول ويأتيهم من جهة المناصحة فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله وأدخل فى تصديقهم له وقبولهم منه فقال « وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم وهو كلام المصنف فى مقاله غير المشط فيه ليسمعوا منه ولا يردوا عليه .

وذلك أنه حين فرضه صادقا فقد أثبت أنه صادق فى جميع مايعد ولكنه أردفه « يصبكم بعض الذى يعدكم » ليهضمه بعض حقه فى ظاهر الكلام فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيا فضلا أن يتعصب له أو يرمى بالحصا من ورائه . وتقديم الكاذب على الصادق أيضا من هذا القبيل)(٢).

ولقد ذهب أبو عبيدة إلى تفسير البعض بالكل وأنشد بيت لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

البيت هكذا فى الكشاف على أن تراك فعل مضارع فاعله أمكنه ولقد رواه أبو السعود بفعل مضارع فاعله المتكلم .

---

(١) اللوص : اللمح : والمعنى يلمح لهم ويداريهم
(٢) الكشاف جـ ٣ ص٤٢٤، ٤٢٥

أترك أمكنة إذا لم أرضها   أو يرتبط بعض النفوس حمامها

ولقد علق الزمخشرى على تفسير أبى عبيدة بقوله (إن صحت هذه الرواية عنه فقد حق فيه قول المازنى فى مسألة العلق كان أجفى من أن يفقه ما أقول له » (١) .

وعلق أبو السعود على هذا البيت بقوله . هذا « مردود لما أن مراده بالبعض نفسه » (٢) .

« إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب » هذا الكلام من مؤمن آل فرعون موجه إلى جهتين الجهة الأولى : يرمز فيه إلى علو شأن موسى والتعريض بهذا ومعناه إن الله أصطفى موسى وأجرى المعجزات البينات على يديه ومن أصطفى وبعث لا يكون مسرفا كذابا .

الجهة الثانية : فيه توجيه إلى فرعون عن طريق التعريض بأن المسرف هو فرعون فهو مسرف فى كفره بالله وزعمه الألوهية ومسرف فى تعطيل منهج الله ومسرف فى مجاوزته الحد مع موسى حيث عزم على قتله .

ولقد أتى الله بصيغة من صيغ المبالغة لأنه بالغ فى كذبه بادعائه الألوهية .

والإسراف هو مجاوزة الحد فى الاعتدال . والكذب : هو مخالفة الخبر للواقع .

والصدق هو مطابقة الخبر للواقع .

« ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا »

لقد سلك المؤمن فى هذه الآية مسلكين :

---

(١) الكشاف حـ ٣ ص ٤٢٥   (٢) تفسير أبى السعود حـ ٤ ص ٤٨٨

الأول : أنه نسب الملك والظهور فى الأرض لهم خاصة دون غيرهم وهذا يسرهم .

الثانى : أنه نظم نفسه فى سمطهم حين قال « ياقوم » وقوله « فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا » فهو يهمه مايهمهم تطييباً لقلوبهم وإيذاناً بأنه ناصح لهم وساع فى تحصيل ما ينفعهم ودرء ما يضرهم .

ولقد سلك هذين المسلكين ليتأثروا بنصحه ويعوا قوله .

ومعنى قوله « ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض » ياقوم لقد أنعم الله عليكم بالملك وبالظهور على غيركم من بنى إسرائيل فى أرض مصر فقابلوا هذه النعمة بالشكر لله وتصديق نبيه واحذروا نقمة الله .

قوله « ظاهرين » حال من الضمير فى لكم والمراد باليوم اليوم الذى يخاطبهم فيه والمراد بالأرض أرض مصر فأل للعهد وليست للجنس .

« فمن ينصرنا من بأس الله » .

الفاء يجوز أن تكون فاء الفصيحة حيث أفصحت عن شرط مقدر والتقدير واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله موسى ، وجواب من محذوف والتقدير من ينصرنا من بأس الله إن قتلنا رسوله والمراد ببأس الله أى عـــذابه . « إن جاءنا » أى إن حل بنا وجواب الشرط محذوف والتقدير لا ناصر لنا .

« قال فرعون » بعد ما سمع نصحه وأصبح خائفاً من وعظ المؤمن . « ما أريكم إلا ما أرى . ما الأولى نافية والثانية اسم موصول والأسلوب أسلوب قصر » أى ما أشـــير عليكم إلا بالذى آراه وهو قتل موسى . (وما أهديكم) بهذا الرأى (إلا سبيل الرشاد) أى الصواب أو المعنى لا أعلمكم إلا ما أعلم ولا أسر عنكم خلاف ما أظهره ولقد كذب فى هذا لأنه كان مستشعر للخوف الشديد .

ولكنه كان يتجلد .

ودليل خوفه من قتل موسى ما يأتى :

١ — استشارته لقومه « ما أريكم إلا ما أرى » .

٢ — عدم تصريحه بقتل موسى بل قال عبارته السابقة .

قرىء سبيل الرشاد على زنة صيغة المبالغة فعال والفعل رشد أو أرشد كجبار من أجبر .

معنى الآيات

لقد جال المؤمن مع قومه جولة كانت حامية الوطيس لمناقشتهم لإثبات رسالة موسى ولقد تحدث معهم بمنطق الفطرة المؤمنة فى حذر وبراعة وحدة ذكاء .

فبدأهم بتفظيع ماهم مقدمون عليه من قتل موسى فاستنكر ذلك منهم « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله » فهل هذه الكلمة البريئة يستحق قائلها القتل ؟ ثم يخطو بهم خطوة أخرى فالذى يهتف بتلك الكلمة البريئة « ربى الله » معه برهانه عليها . ويملك حجته فى الذود عنها « وقد جاءكم بالبينات من ربكم فهو يشير إليهم بالآيات التسع الدالة على صدق رسالته .

وهو فى موقف يحتمل احتمالين ثم يفرض لهم فرضاً سيئاً ، من الاحتمالين وإن يك كاذبا فعليه كذبه فعلى هذا الفرض يحمل تبعة كذبه ويلق جزاءه وهذا ليس بمسوغ لقتله .

والاحتمال الثانى : إن يك صادقاً فيجب الاحتياط والحذر لهذا الاحتمال « وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم » وإصابتهم ببعض

الذى يعدهم هو أقل احتمال فى القضية فهو لا يطلب إليهم أكثر منه وهذا منتهى الإنصاف فى الجدل والإفحام . ثم يهددهم بأسلوب التعريض إذا كان موسى مسرفا فإن الله لا يهديه ولا يوفقه فدعوه له يلاق منه جزاءه واحذروا أن تكونوا أنتم الذين تكذبون على موسى وربه وتسرفون فيصيبكم غضب الله ثم يحذرهم من بطش الله الذى لا يدرأه عنهم ملك ولا سلطان « ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا » فهو يحمل بين جوانبه قلب مفعم بالإيمان يشعر بأن بأس الله أقرب ما يكون — لأصحاب الملك أو السلطان فهم أحق الناس بأن يحذروه وأجدر الناس بأن يحسوه ويتقوه وأن يعيشوا حياتهم على وجل منه « فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا » إنه يشعرهم بأن أمرهم يهمه فهو واحد منهم وهو واحد من فريقهم مصيره مرتبط بمصيرهم فهو إذن مشفق عليهم ولعل هذا يحملهم على النظر فى نصحه ودعوته باهتمام . وهنا يأخذ فرعون ما يأخذ كل طاغية توجه إليه النصيحة ، تأخذه العزة بالإثم . ويرى فى النصح الخالص إنقاصاً من نفوذه ومشاركة له فى السلطان .

« قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » أى لا أقول لكم إلا ما أراه صواباً واعتقده نافعاً وإنه لهو الصواب والرشاد بلا ريب ولا جدال وهذا ديدن الطغاة لا يرون إلا رأيهم ولا يسمحون بوجود رأى معه وإلا لم يكونوا طغاة .

تخويفهم بعذاب الأمم السابقة ويوم القيامة :

« وقال الذى آمن ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد ، وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد ، ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم

فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل من هو مسرف مرتاب ، الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل متكبر جبار » .

المباحث العربية

« إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب » .

« أخاف » الخوف : توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة والفرق بينه وبين الرجاء أن الرجاء : توقع أمر محبوب عن أمارة مظنونة أو معلومة .

« مثل يوم الأحزاب » أى مثل أيام الأمم الماضية وسموا أحزابا لأنهم تألبوا واجتمعوا والسر فى جمع الأحزاب يقول الزمخشرى « مثل أيامهم لأنه لما أضافه — أى اليوم — إلى الأحزاب وفسرهم بقوم نوح وعاد وثمود ولم يلبث أن كل حزب منهم كان له يوم دمار اقتصر على الواحد من الجمع لأن المضاف إليه أغنى عن ذلك »(١) .

« ومثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم » الدأب العادة والشأن والمراد مثل جزاء وانتصب مثل الثانى هنا لأنه عطف بيان لمثل الأول ، وقوم نوح هم الذين أرسل إليهم نوح عليه السلام « وهو نوح ابن لامك بن متوشلخ بن خنوخ — وهو إدريس عليه السلام — بن يرد ابن مهلاييل بن قينن بن سيث بن آدم أبى البشر عليه السلام »(٢).

« وعاد » قوم عاد . اسم قبيلة تنسب إلى عاد بن عوض بن سام بن نوح

---

(١) الكشاف حـ ٣ صـ ٤٢٥ ، ٤٢٦ .
(٢) قصص الأنبياء لابن كثير حـ ١ صـ ٧٤

وكانوا عرباً يقطنون الأحقاف وهى جبال من الرمل وكانت باليمن بين عمان وحضرموت وهى أرض مطلة على البحر يقال لها الشحر .

يقول صاحب الفتوحات الإلهية رحمه الله (وفى القرطبى وقال ابن إسحاق هما عادان ، فالأولى أهلكت بالريح الصرصر ثم كانت الأخرى فأهلكت بصيحة ، وقيل عاد الأولى هو عاد بن إرم بن عوض بن سام ابن نوح ، وعاد الثانية من ولد عاد الأولى ، والمعنى متقارب وقيل إن عادا الآخرة الجبارون وهم قوم هود اﻫ .

وقال فى سورة الفجر وقيل : وقيل هما عادان فالأولى هى إرم قال الله عزوجل وأنه أهلك عادا الأولى فقيل لعقب عاد بن عوض بن إرم ابن سام بن نوح عاد ثم قيل : للأولين منهم عاد الأولى وإرم تسمية لهم باسم جدهم ولمن بعدهم عاد الآخرة ، وقال معمر إرم إليه يجمع عاد وثمود وكان يقال عاد إرم وعاد ثمود وكانت القبائل تنسب إلى إرم ذات العماد اﻫ .

وهذا التقرير هو الموافق لظاهر الآية ولصنيع الشارح(1) ، وفى البيضاوى وأنه أهلك عادا الأولى القدماء لأنهم أول الأمم هلاكا بعد قوم نوح عليه السلام ، وقيل عاد الأولى قوم هود وعاد الآخرى إرم . اﻫ

---

(1) يقصد بالشارح مفسر الجلالين فلقد ذهب إلى أن الأولى هى قوم هود والأخرى قوم صالح ولقد فسر جلال الدين محمد بن أحمد المحلى التفسير من أول سورة الكهف وختم النصف الأخير من القرآن إلى سورة الناس ولما قصد تفسير النصف الأول وبدأ بالفاتحة ولما انتهى منها اخترته منيته فلقد ولد سنة ٧٩١ ﻫ ومات سنة ٨٦٤ ﻫ ثم أتى بعده جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطى المتوفى سنة ٩١١ ﻫ ففسر النصف الأول وبدأه من سورة البقرة وانتهى به إلى آخر سورة الإسراء ولما كانت سورة الفاتحة قد فسرها جلال الدين المحلى فقد جعلها فى الترتيب بعد سورة الناس .

وقوله القدماء أشار به إلى أنه ليس هناك عادان إحداهما أقدم من الأخرى حتى يكون وصف إحداهما بالأولى للاحتراز من عاد الأخيرة ، بل ليس هناك إلا عاد واحدة هى أعقاب عاد بن عوض بن إرم بن سام ابن نوح . والمراد بأوليتهم تقدم هلاكهم على هلاك من بعدهم ا . ه ،زاده وهذا الذى ذكره زاده بعيد من ظاهر الآية)(١) .

قوله « وثمود » هم قبيلة مشهورة . يقال لهم ثمود باسم جدهم ثمود أخى جديس وهما ابنا عاثر بن إرم بن سام بن نوح وكانوا عرباً يسكنون الحجر بين الحجاز وتبوك بالمملكة العربية السعودية .

ولقد أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام .

وهو صالح بن ماسح بن عبيد بن حادر بن ثمود بن عاثر بن إرم ابن نوح .

قوله « والذين من بعدهم » كقول لوط عليه السلام .

قوله « وما الله يريد ظلماً للعباد » أى أن الله سبحانه لم يظلمهم وتدميرهم كان عدلا لأنهم استحقوه بأعمالهم .

نكتة :

قال الله تعالى هنا « وما الله يريد ظلماً للعباد » وقال فى سورة فصلت « وما ربك بظلام للعبيد »(٢) .

فالآية الأولى أبلغ من الآية الثانية لأمرين : الأول لقد جعل المنفى إرادة الظلم ومن كان منفياً عنه إرادة الظلم فوقوع الظلم منه أبعد .

الثانى : فى الآية الأولى نكر ظلماً والتنكير هنا يفيد التقليل .

---

(١) الفتوحات الإلهية حـ ٤ ص ٢٣٨

(٢) سورة فصلت آية ٤٦

ولا يفهم من الآية الثانية أن «ظلام» صيغة مبالغة ويكون المعنى أن الله لا يقع منه الظلم كثير وبالتالى فيقع منه ظلم قليل وحاشا لله أن يفهم هذا من السياق وتوجيه الآية الثانية كما يأتى :

١ — إما أن كلمة ظلام صيغة نسب كبقال . وخباز ونجار وليست صيغة مبالغة .

٢ — وإما أن يكون المعنى وما ربك بذى ظلم للعبيد .

٣ — وإما أن نقول إن الصيغة صيغة مبالغة وأتت لمناسبة الجمع فى قوله «للعبيد» والله يستحيل عليه الظلم .

قوله «ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد» ويوم التناد هو يوم القيامة لأنه يكثر فيه النداء ففيه ينادى أصحاب الجنة على أصحاب النار ليخبروهم بتحقيق وعد الله لهم . وفيه ينادى أصحاب الأعراف وفيه ينادى أصحاب النار على أصحاب الجنة ليطلبوا منهم بعضا مما أفاضه الله عليهم . وفيه ينادى أصحاب النار على مالك .

قال الله تعالى (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم)(١) .

وقال تعالى (ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون)(٢) .

وقال تعالى (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين)(٣) .

---

(١) سورة الأعراف آية ٤٤ (٢) سورة الأعراف آية ٤٨
(٣) سورة الأعراف آية ٥٠

وقال تعالى (ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون)(١).

و « التناد » تحذف ياؤه فى الوقف وتثبت فى الوصل .

« يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم » .

« يوم » بدل من قوله يوم التناد « تولون » أى منصرفين من الحساب إلى النار « ما لكم من الله من عاصم » يعصمكم أى يمنعكم من عذابه وهذه الجملة حال من الضمير فى الفعل « تولون » . «ومن يضلل الله فما له من هاد» هذه الجملة مستأنفة ومعناها ومن يرد الله ضلاله فليس له هاد يهديه إلى الله وإلى طريق النجاه .

« ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا » قيل إن هذا القول من موسى وقيل إنه من تمام وعظ مؤمن آل فرعون ولقد ذكرهم المؤمن بأن من ديدنهم عتوهم على الأنبياء ولقد اختلف فى المراد من يوسف فى هذه الآية فقيل إن المراد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام وقيل إنه عاش (إلى زمن موسى الكليم وهذا لم يقله غيره(٢) من المفسرين وإنما غاية ما وجد بعد التفتيش ما نقله الشهاب بقوله وفى بعض التواريخ أن وفاة يوسف قبل مولد موسى بأربع وستين سنة . اهـ .

ولذلك قال القارى قوله عمر إلى زمن موسى ظاهر كلامه أن الذى عمر هو يوسف والصحيح أن المعمر هو فرعون موسى أدرك يوسف

---

(١) سورة الزخرف آية ٧٧

(٢) يريد به جلال الدين المحلى .

ابن يعقوب وعاش إلى أن أرسل إليه موسى وعمر أربعمائة سنة وأربعين سنة ا ﻫ . وقد بعثه الله من قبل موسى رسولا يدعو القبط إلى طاعة الله وحده فما أطاعوه تلك الطاعة . نعم أطاعوه لمجرد الوزارة والجاه الدنيوى .قارى . وقوله أو يوسف بن ابراهيم إلخ فيوسف هذا سبط يوسف بن يعقوب أرسله الله إلى القبط فأقام فيهم عشرين سنة نبيا ا ﻫ . زاده (١) .

وقوله « فما زلتم فى شك مما جاءكم به » أى ما زال أسلافكم وأجدادكم فى غير يقين .

«مما جاء به حتى إذ هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا» أى فما زلتم كافرين من الذى جاءكم به من عند الله حتى إذا قبضه الله إليه قلتم لن يبعث الله من بعد يوسف رسولا فإذا جاءكم رسولا هو موسى جحدتم وكذبتم بناء على حكمكم الباطل فضممتم تكذيبكم ليوسف . وهذه هى المرة الوحيدة التى يتحدث فيها الله تعالى عن رسالة يوسف .

« كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » أى مثل ذلك الضلال الذى أضله الله لقوم فرعون يضل الله من هو « مسرف » متجاوز للحد فى عصيانه (مرتاب) شاك فيما تنطق به البينات على الصدق وذلك لغلبة الوهم والانقياد فى التقليد .

(الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم) .

هذا الكلام يحتمل أن يكون من كلام المؤمن ويحتمل أن يكون ابتداء كلام الله تبارك وتعالى ويجوز فى اسم الموصول أن يكون مبتدأ

---

(١) الفتوحات الإلهية ﺤ ٤ ص١٤٠

خبره جملة (كبر) وهو فعل ماض وفاعله ضمير مستتر يعود على المصدر المفهوم من (يجادلون) تقديره هو أى الجدال .

ويجوز أن يكون الذين نعت لاسم الموصول السابق (من هو مسرف) وتكون جملة كبر مستأنفة ويجوز فى (كبر مقتا) أن يكون الفاعل ضميراً مستتراً والتقدير كبر المقت مقتا ومقتا تمييز . والجدال المفاوضة على سبيل المنازعة (فى آيات الله) فى معجزاته وهى الآيات التى أجراها على يد الأنبياء فإن كان هذا الكلام من كلام المؤمن فإنه تعريض منه بإنكارهم معجزات موسى عليه وعلى نبينا السلام . (بغير سلطان) أى بدون برهان أو دليل والجار والمجرور حال . والتقدير الذين يجادلون فى آيات الله حالة كونه بغير سلطان . (أتاهم) هذه الجملة فى محل جر صفة لسلطان . (كبر مقتا) المقت هو البغض الشديد (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) أى مثل ذلك الطبع الفظيع على قلوب قوم فرعون يطبع الله على قلب كل متكبر . والطبع هو أن تصور الشىء بصورة ما كطبع السكة وطبع الدراهم وهو أعم من الختم وأخص من النقش والطابع والخاتم : مايطبع به ويختم)[1] والختم والطبع : يقال على وجهين :

مصدر ختمت وطبعت وهو تأثير الشىء كنقش الخاتم والطابع .

والثانى : الأثر الحاصل عن النقش . ويتجوز بذلك تارة فى الاستيثاق من الشىء والمنع منه)[2] .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٤٤٩

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٥

(على كل قلب) القلب هو المضغة المجوفة التى تكون فى أعلى الصدر تحت الثدى الأيسر قاعدته أعلى ورأسه أسفل ويقوم بضخ الدم إلى جميع أجزاء الجسم وهو محل التجليات الإلهية .

(متكبر) اسم فاعل من الفعل الرباعى تكبر يقول الراغب فى مفرداته الكبر والتكبر والاستكبار تتقارب فالكبر الحالة التى يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره وأعظم. والتكبر : التكبر على الله بالامتناع عن قبوله الحق والإذعان له بالعبادة . والاستكبار يقال على وجهين : احدهما : أن يتحرى الإنسان ويطلب أن يصير كبيراً . وذلك متى كان على ما يجب وفى المكان الذى يجب وفى الوقت الذى يجب فمحمود .

والثانى أن يتشبع فيظهر من نفسه ما ليس له وهذا هو التكبر(1) «جبار» يقول الراغب («والجبار» فى صفة الإنسان يقال لمن يجبر نقيصته بادعاء منزلة من التعالى لا يستحقها . وهذا لا يقال إلا عن طريق الذم)(2) .

معنى الآيات السابقة

وقال مؤمن آل فرعون بعد أن امتلأ قلبه خشية من الله وفرقا من غضبه ياقوم إنى أخاف عليكم مثل أيام الأحزاب التى تجلى فيها بأس الله تعالى . وحل بالمشركين . فلم يترك منهم شاردة ولا واردة . فلقد طرق قلوبهم بلغتهم إلى مصارع الأحزاب قبلهم . فهى شاهدة على بأس الله فى

---

(1) المرجع السابق ص ٦٣٧

(2) المرجع السابق ص ١١٨

أخذهم المكذبين والطغاة وهذا إيقاع يمس عواطفهم حتى تستيقظ قلوبهم وتلين قناتهم ثم ساق لهم أسماء الأقوام مثل قوم نوح وعاد وثمود ومن جاء بعدهم مثل قوم لوط . وما الله يريد ظلما للعباد ، ثم يحذرهم من يوم لا تنفع فيه الأعذار وهو يوم القيامة الذى تنادى فيه الملائكة على العباد وعلى ألوان المعاصى . وفيه ينادى أصحاب الجنة أصحاب النار فيعلنون تحقق وعد الله سبحانه وتعالى . وفيه ينادى أصحاب النار طالبين من أهل الجنة ماء أو طعاما أو طالبين من مالك أو الخزنة أن يقضى الله عليهم بالموت أو يطلبون من الخزنه أن يخفف الله عنهم العذاب . ويذكرهم بالإنصراف من الموقف إلى النار ما لهم مانع يمنعهم من عذاب الله . ثم يقول لهم إلجئوا إلى الله ولا تعصوه . فمن يضلل الله فما له من هاد يهديه . وأخيراً يذكرهم بموقف أسلافهم من يوسف عليه السلام وكيف تمكن الريب من أفئدتهم قبل رسالته رغم ما جاءهم به ويهدف من ذلك أنهم لا يكرروا الموقف مع موسى وهو يصدق ما جاءهم به يوسف ويكذب ما جزموا به من أن الله لن يبعث من بعده رسولا وهاهو ذا موسى يجيء على فترة من يوسف ويكذب قيلهم هذا . ثم يشتد المؤمن ويشير إلى ارتيابهم وإسرافهم على طريق التعريض « كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » فهو ينذرهم باضلال الله الذى ينتظر كل متجاوز للحد فى عقيدته . مرتاب فى منهج ربه ثم يزداد فى مواجهتهم بالعنف ويندد بالتكبر والتجبر وينذر بطمس الله لقلوب المتكبرين المتجبرين .

« الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » .

ولقد كانت هذه جولة ضخمه أسر المؤمن قلوبهم فيها بيد أنها تركت فرعون جاحداً مصراً على التنكير للحق ولكنه تظاهر بأنه يتحقق من دعوة موسى ويبدو أن منطق الرجل المؤمن كان شديد الوقع عليه فاتخذ لنفسه مهرباً جديداً .

« وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحاً(١) لعلى أبلغ الأسباب(٢) .
أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً . وكذلك زين لفرعون سوء المؤمن يدعو القوم إلى اتباعه ويكشف لهم بهرج(٣) الدنيا .

« وقال الذى آمن ياقوم اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد . ياقوم إنما هذه الحياة متاع وإن الآخرة هى دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب . وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لاجرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة . وأن مردنا إلى وأن المسرفين هم أصحاب النار . فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد . فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم القيامة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب » .

المباحث العربية

« وقال الذى آمن ياقوم اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد » القائل هو مؤمن آل فرعون وقيل موسى عليه السلام . ولكن الذى يرجح أنه مؤمن آل فرعون السياق من أول الآيات فلقد أطلق عليه القرآن هذا الاسم وكذلك دعوتهم إليه للعودة إلى الكفر بالله فهم دعوا المؤمن وكذلك نداؤه لهم

---

(١) هامان: وزيره . والصرح : هو البناء العالى الظاهر .
(٢) الأسباب : الطرق وفى إبهامها ثم إيضاحها تفخيم لشأنها .
(٣) البهرج : الباطل والردىء .

وإضافته إليهم « ياقوم » فى مواضع متعددة يدل على أنه المؤمن لأن بنى إسرائيل هم قوم موسى فقوم مضاف وياء المتكلم مضاف إليه وحذفت للتخفيف كذلك فى الآية تحدى لفرعون كما يأتى بعـــد ذلك وموسى لايتحدى فرعون .

« أهدكم » فى محل جزم جواب الأمر اتبعونى . « سبيل الرشاد » هى السبيل الذى يصل سالكها إلى بغيته . وفى هـذا تعريض بأن ما يسلكه فرعون وقومه سبيل الضلال وهذا هو التحدى لفرعون حيث قال آنفاً « وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » .

« إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار » هذا أسلوب حصر بإنما واسم الإشارة مبتدأ وخبره متاع . والحياة ضد الموت والدنيا مؤنث أدنى . ووصف الحياة بهذا الوصف لأحد أمرين :

١ — إما لأنها دانية قصيرة الأجل قريبة النهاية .

٢ — وإما لدنوها أى لقربها من الآخرة .

« متاع » أى انتفاع موقوت إلى أجل .. « وإن الآخرة هى دار القرار » أى الثبات والدوام فلا يخترمها الموت . وفى الحياة الدنيا والآخرة مقابلة . «من عمل سيئة » أى من عمل فى الدنيا « سيئة » هى الفعلة القبيحة وسميت بذلك لأنها تسوء صاحبها يوم القيامة « فلا يجزى إلا مثلها » أى فلا يعطى الجزاء عليها إلا مثلها . وهو عدل من الله تعالى . والفاء واقعة فى جواب الشرط من ويعرب الشرط وفعله هكذا «من » اسم شرط مبنى على السكون لامحل له من الإعراب « عمل » فعل ماض مبنى على الفتح فى محل جزم فعل الشرط . وفاعله ضمير مستتر جوازاً تقديره هو يعود على اسم الشرط و « سيئة » مفعول به لعمل . والفاء فى « فلا » واقعة فى جواب الشرط والجملة بعدها جملة هى الجواب .

« ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب » .

« من » اسم شرط وهو مفرد فى اللفظ عام فى المعنى « صالحاً » إما أن تعرب مفعولا به أو صفة لموصوف محذوف والتقدير عملا صالحاً. والصلاح ضد الفساد .

« وهو مؤمن » جملة حالية من الضمير الفاعل فى عمل وهنا مقابلة بين « من عمل سيئة » وبين « من عمل صالحاً » وجملة فأولئك يدخلون الجنة جواب الشرط . والجنة هى البستان والمراد بها الدار التى أعدها الله للمؤمنين « يرزقون فيها بغير حساب » جملة فى محل نصب حال من الضمير الفاعل فى « يدخلون » . والرزق : هو كل ما ينتفع به الإنسان وأتى بالفعل مضارعا « يرزقون » ليدل على تجدد الرزق ودوامه .

« بغير حساب » الحساب : هو (إحصاء ماله كمية بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين منه له اسم خاص)(١) والفرق بينه وبين العدد أن العدد (إحصاء ماله كمية بتكرير أمثاله من غير أن يتحصل منه شيء) والحساب إحصاء ماله كمية بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين منه له اسم خاص فالسنة مثلا إن وقع النظر إليها من حيث عدد أيامها فذلك هو العدد وإن وقع النظر إليها من حيث تحققها وتحصلها من عدة أشهر قد يحصل كل شهر من عدة أيام قد يحصل كل يوم من عدة ساعات قد تحصلت كل ساعة من عدة دقائق فهذا هو الحساب)(٢) .

---

(١) فتح القدير جـ٣ ص٢١٣

(٢) المرجع السابق .

والمراد بقوله «بغير حساب» أى بغير تقدير لرزق الجنة ولقد سبق أن جزاء السيئة له حساب وتقدير وهو المجازاة عليها دون زيادة لئلا يزيد على الاستحقاق وهذا عدل . وفى رزق الجنة يعطى بغير تقدير وهذا فضل وكرم .

لطيفه :

قال الزمخشرى رحمه الله (فإن قلت لم كرر نداء قومه ولم جاء بالواو فى النداء الثالث دون الثانى ؟ قلت أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه وإيقاظ عن سنة الغفلة . وفيه أنهم قومه وعشيرته وهم فيما يوبقهم وهو يعلم وجه خلاصهم . ونصيحتهم عليه واجبة فهو يتحزن لهم ويتلطف بهم ويستدعى بذلك أن لا يتهموه فإن سرورهم سروره وغمهم غمه وينزلوا على تنصحه لهم كما كرر إبراهيم عليه السلام فى نصيحة أبيـــه « يا أبت » . وأما المجىء بالواو العاطفة فلأن الثانى(١) داخل على كلام هو بيان للمجمل(٢) وتفسير له فأعطى الداخل عليه حكمه فى امتناع دخول الواو وأما الثالث فداخل على كلام ليس بتلك المثابة . يقال دعاه إلى كذا ودعاه له كما تقول هداه إلى الطريق وهداه له)(٣) .

قوله « وياقوم ما لى أدعوكم إلى النجاة » وهو سبيل الرشاد ففيه النجاة من النار ومن غضب الجبار . « وتدعوننى إلى النار » أى إلى الطريق الموصلة إلى النار وقد فسرها بقوله « تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى

---

(١) أى النداء الثانى .
(٢) المجمل هو سبيل الرشاد والمفسر هو ما بعده .
(٣) الكشاف جـ ٣ ص ٤٢٩ .

به علم ، أى بربوبيته والمراد بنفى المعلوم والمعنى أشرك به ما ليس بإله وكيف يصح أن يكون إله مع الله ؟ .

« وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار » أى وأنا أدعوكم إلى الغالب كثير المغفرة لكل مذنب فهو يفتح الباب لكل مذنب حتى المشركين ولا يخفى التعبير بصيغتى المبالغة فعيل وفعال .

« لا جرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة » .

« لا جرم » أى لابد أو حقا . ويجوز أن تكون لا نافية تنفى وترد ما دعوه إليه من الشرك . وجرم فعل ماض بمعنى كسب وفاعله مستكن فيه أى كسب ذلك الدعاء إليه ببطلان دعوته بمعنى ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته وقيل جرم فعل من الجرم وهو القطع كما أن بد من لابد فعل من التبديد أى التفريق والمعنى لاقطع لبطلان ألوهية الأصنام أى لاينقطع فى وقت ما فينقلب حقاً)[1] .

« ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة » .

أى أن الذى تدعوننى إليه لايدعو هو إلى عبادة نفسه ولا يدعى الربوبية لنفسه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

« وأن مردنا إلى الله » أى مرجعنا بعد الموت إلى الله « وأن المسرفين » أى المجاوزون للحد وكفروا وأشركوا « وهم أصحاب النار » فلكثرة خلودهم فيها وملازمتهم لها صاروا كأنهم أصحابها . « فستذكرون ما أقول لكم » أى فسيذكر كل واحد منكم قولى عند معاينة العذاب وسبكت مع ما بعدها بمصدر وهو مفعول به لتذكرون . ويجوز أن تكون موصولة .

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ٤ ص ٤٩١ ، ٤٩٢

« وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد » أى أرد أمرى إلى الله وأمر اسم جنس أضيف إلى معرفة فيدل على العموم أى أن المؤمن يردكل شأنه إلى ربه وفى هذا توكل على الله تعالى .

« إن الله بصير بالعباد » هذه الجملة مستأنفة معللة لما سبق وإذا كان الله بصيراً بالعباد فإنه يحرس من يلوذ به من المكاره .

« فوقاه الله سيئات ما مكروا » أى شدائد مكرهم وما هموا به من إلحاق العذاب » .

« وحاق بآل فرعون سوء العذاب » وحاق أى أحاط بفرعون وآله سوء العذاب . ولم يصرح بإحاطة العذاب له استغناء بذكر آله عن ذكره فهلاكهم من باب أولى يدل على هلاكه . وهذا يشير إلى أن فرعون لم يهلك وحده بل كل ما جاراه ورضى عنه .

جزاء آل فرعون فى قبورهم :

« النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب .

هذه الجملة مستأنفة والنار خبر لمبتدأ محذوف والتقدير هو النار فكأن سائلا سأل ما سوء العذاب فقيل هو النار . ويعرضون استئناف لبيان سوء العذاب وقرىء بنصب النار على الاختصاص .

وهذه الآية دليل على عذاب القبر .

معنى الآيات

ورفع المؤمن هامته متحدياً فرعون بعدما كان يكتم إيمـــانه رداً على قيله :

« قال فرعون ما رأيكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا » متاع زائل لا دوام له وإن الدار الآخرة هي دار الدوام والثبوت والاستقرار . وفيها يجازى الإنسان على ما قدم فيجازيه الله على السيئة جزاء على قدرها عدلا من الله . ويجازى الإنسان على أعماله الصالحة إذا كان مؤمناً بدخول الجنة . يرزقون فيها بغير تقدير . فالحسنات تضاعف رحمة منه لهم . وللعثرات التي يجدونها في طريق الأعمال الصالحة فالجنة محفوفة بالمكاره .

ويستنكر المؤمن من قومه مقابلتهم لدعوته فهو يدعوهم إلى الإيمان بالله وبرسوله موسى وهم يدعونه إلى الشرك بالله وبشريك لاعلم له بإلهيته ، وشتان بين دعوته ودعوتهم فدعوته مستقيمة واضحة يدعوهم فيها إلى العزيز الغفار وهذا حق دعوتهم إلى الاشتراك بمدعيات وأوهام . ويظل المؤمن سادراً في مناقشتهم التي حمى وطيسها بلا تردد ولا تلعثم ولما أيقن أنهم لم يستجيبوا له لم يبق إلا أن أعلن إعلاناً يهددهم فيه بأنهم سيذكر بعضهم بعضاً عند معاينة العذاب بقيله .

وأما هو فيفوض أمره إلى الله فهو بصير بعباده وينهى الجدل والحوار معهم بقوله : « وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد » ليسجل كلمة خالدة تلهج بها ألسنة المؤمنين إلى أن يلتقوا بقائلها في الجنان . ووقاه الله سيئات مكرهم وأحدق بآل فرعون سوء العذاب وهو الغرق وعذاب القبر امتداد لهذا العذاب فهو انتقال من عذاب شديد إلى ما هو أشد منه .

طائفة من هذه الأمة مع فرعون :

يدخل مع فرعون جهنم طائفة لم تحافظ على الصلاة (عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهانا ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف)(١).

نهاية المؤمن

لقد تباينت أقوال العلماء في نهايته هل قتل؟ أم نجا مع موسى فاختلفوا إلى فرقتين :

الفرقة الأولى : تقول بنجاته ومن هؤلاء ابن جرير وقتادة وساق ابن جرير قول قتادة فقال (حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة قوله «سيئات ما مكروا» قال وكان قبطيا من قوم فرعون فنجا مع موسى قال وذكر لنا أنه بين يدي موسى يومئذ يسير ويقول اين أمرت يانبي الله فيقول أمامك فيقول له المؤمن وهل أمامي إلا البحر فيقول موسى لا والله ما كذبت ولا كذبت ثم يسير ساعة ويقول أين أمرت يانبي الله فيقول أمامك فيقول وهل أمامي إلا البحر فيقول والله ما كذبت ولا كذبت حتى أتى على البحر فضربه بعصاه فانفلق اثنى عشر طريقا لكل سبط طريق)(٢).

وذهب إلى القول بنجاته ابن كثير قال («فوقاه الله سيئات ما مكروا»

(١) الفتح الرباني حـ٢٠ صـ١٠٢ — ١٠٣

(٢) تفسير الطبري حـ٢٤ صـ٤٦

أى فى الدنيا والآخرة . أما فى الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام وأما فى الآخرة فبالجنة)(١) .

الفرقة الثانية : ذهب صاحب الفتح الربانى فى شرحه لمسند الإمام أحمد إلى أن مؤمن آل فرعون قتل فقال (« باب قتل مؤمن آل فرعون وما شطة بنت فرعون » وكان حزقيل مؤمن آل فرعون يكتم إيمانه قيل كان من بنى إسرائيل وقيل كان من القبط وقيل هـو النجار الذى صنع التابوت الذى جعل فيه موسى وألقى فى النيل فلما رأى غلبة موسى السحرة أظهر إيمانه وقيل أظهر إيمانه قبل ذلك وكان فرعون أراد قتل موسى . فقال :«أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم» فلما أظهر إيمانه قتل وصلب مع السحرة وكان له امرأة مؤمنة تكتم إيمانها أيضاً وكانت ما شطة ابنة فرعون فبينما هى تمشطها إذ وقع المشط من يدها فقالت بإسم الله فقالت ابنة فرعون أبى قالت لا بل ربى وربك ورب أبيك فأخبرت أباها بذلك فدعا بها وبولدها وقال لها من ربك ؟ قالت ربى وربك الله فأمر بتنور من نحاس فأحمى ليعذبها وأولادها فقالت له لى إليك حاجة قال وما هى قالت تجمع عظامى وعظام ولدى فتدفنها قال ذلك فأمر بأولادها فألقوا فى التنور واحداً واحداً وكان آخر أولادها صبياً صغيراً فقال اصبرى يا أماه فإنك على الحق فالقيت فى التنور مع ولدها)(٢)

والذى أراه :

أولا : أن ما شطة ابنة فرعون لم تكن زوجة لمؤمن آل فرعون لأنها لو كانت وصيفة من وصائف قصر فرعون وإذا كان هذا مستواها فزوجها

---

(١) تفسير القرآن العظيم حـ ٤ صـ ٨١

(٢) الفتح الربانى حـ ٢٠ صـ ٩٢ — ٩٣

يكون من نفس طبقتها ولا يجرؤ أن يتحدى فرعون أما الآيات الآنفة فساقت تحدى مؤمن آل فرعون لفرعون .

ثانياً : إن مؤمن آل فرعون لم يقتل أى لم يقتله فرعون بل نجاه الله من كيده ومن كيد آله «فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب» فقول الله «سيئات ما مكروا» يدل على أن الله وقاه من كيدهم فلم يقتل ولم يصب بسوء . كما صرحت رواية ابن جرير خرج مع موسى عليه السلام .

ثالثاً : لم يرد حديث صحيح الإسناد بأنه قتل وأن ماشطة زوجة له ولقد ساق الحافظ ابن كثير قصة ماشطة(١) دون أن يبين زوجها ولو كان مؤمن آل فرعون زوجها لكان أحرى بابن كثير أن يذكر ذلك .

شخصيتان متقاربتان فى السلوك

إن كان قد برز فى زمن موسى شخصية صاحت فى وجه الطاغية فرعون تنكر قتل موسى فقد ظهرت شخصية مع رسول الله محمد ﷺ هى شخصية عبد الله بن أبى قحافة المكنى بأبى بكر والشخصيتان التقتا فى بوتقة واحدة هى بوتقة الإيمان فامتلأ قلبهما بالإيمان وإن كان مؤمن آل فرعون قد سبق أبا بكر فى الزمن وفعل ما لا يفعله غيره من الوقوف فى وجه الطاغية الذى نصب نفسه إلهاً على الناس قال تعالى «فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى»(٢) ودعا الناس إلى عبادة الله وحده وطاعة رسوله موسى فكان شخصية مؤمنة بارزة فى عصر موسى .

فأبو بكر قد فعل فى الإسلام ما لا يفعله غيره روى البخارى بسنده

---

(١) تفسير القرآن العظيم جـ ٣ ص ١٥

(٢) سورة النازعات آية ٤٣ — ٤٤

(عن عروة بن الزبير قال : سألت ابن عمرو بن العاص : أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ قال بينا النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة . إذا أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ قال « أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله »[1] .

ودعا عبد الرحمن بن عوف إلى الإسلام وأسلم على يديه الكثير من أمثال عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهما . ولم يبخل على المسلمين بشيء قال عليه السلام (إن أمن[2] الناس علي في ماله وصحبته أبو بكر ولو كنت متخذاً خليلا لا تخذت أبا بكر خليلا)[3] .

(١) فتح الباري جـ ٧ صـ ١٦٥ — ١٦٦
(٢) أي أكثرهم جوداً بنفسه وماله
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٥ صـ ١٥٠ جزء الحديث

العلم الثالث

العبد الصالح صاحب موسى
الخضر عليـــه السلام

هذه الشخصية من الشخصيات التى كثر حولها الكلام لما فى قصتها من أحوال متباينة ومواقف مؤثرة .

— اسمه ونسبه :

اسم الخضر فيه ثلاث لغات : هو بكسر الخاء مع سكون الضاد ، وبفتح الخاء مع سكون الضاد وكسرها.

ولقد تباينت أقوال العلماء فى تحديد اسمه وهويته كما يأتى:

رأى وهب بن منبه .

قال :(هو بليا بفتح الموحده أى الباء وسكون اللام بعدها تحتانية ، ووجد بخط الدمياطى فى أول الاسم بنقطتين وقيل كالأول بزيادة ألف بعد الباء[1]).

وقيل اسمه إلياس .

وقيل اليسع .

وقيل عامر .

وقيل خضرون — والأول أثبت — ابن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ ابن أرفشخذ بن سام بن نوح . فعلى هذا فولده قبل إبراهيم الخليل لأنه يكون ابن عم جد إبراهيم.

(١) فتح البارى حـ ٦ ص ٤٣٣

وقد حكى الثعلبى قولين فى أنه كان قبل الخليل أو بعده .

قال : وهب وكنيته أبو العباس وروى الدارقطنى فى « الأفراد » من طريق مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال هو ابن آدم لصلبه . وهو ضعيف منقطع وذكر أبو حاتم السجستانى فى « المعمرين » أنه ابن قابيل بن آدم رواه عن أبى عبيدة وغيره . وقيل اسمه أرميا بن طيفاء حكاه ابن اسحاق عن وهب وإرميا بكسر أوله وقيل بضمه وأشبعها بعضهم واواً .

واختلف فى اسم أبيه فقيل : ملكان وقيل كلمان وقيل عاييل وقيل قابل والأول أشهر وعن اسماعيل بن أبى أويس هو العمر بن مالك بن عبد الله بن نصر بن الأزد(١).

وقيل أنه كان من بنى إسرائيل فى زمان فرعون أيضا (قال أبو زرعة فى دلائل النبوة حدثنا صفوان بن صالح الدمشقى حدثنا الوليد حدثنا سعيد ابن بشير عن قتاده عن مجاهد عن ابن عباس عن أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه ليلة أسرى به وجد رائحة طيبة فقال ياجبريل ما هذه الرائحة الطيبة ؟. قال : هذه ريح قبر الماشطة وابنيها وزوجها .

وقال : كان بدء ذلك أن الخضر كان من أشراف بنى إسرائيل وكان ممره براهب فى صومعته فتطلع عليه الراهب فعلمه الإسلام فلما بلغ الخضر زوجه أبوه امرأة فعلمها الإسلام وأخذ عليها أن لا تعلم أحد وكان لايقرب النساء ثم طلقها ثم زوجه أبوه بأخرى فعلمها الإسلام وأخذ عليها أن لا تعلم أحداً ثم طلقها فكتمت إحداهما وأفشت عليه الأخرى فانطلق هارباً حتى أتى جزيرة فى البحر فأقبل رجلان يحتطبان فرأياه فكتم أحدهما وأفشى عليه الآخر قال : قد رأيت الخضر قيل ومن رآه معك ؟ قال : فلان ،

---

(١) المرجع السابق ص ٤٣٣ ، ٤٣٤

فسئل فكتم وكان من دينهم أنه من كذب قتل فقتل . وكان قد تزوج الكاتم المرأة الكاتمة قال فبينا هي تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها فقالت تعس فرعون فأخبرت أباها وكان للمرأة ابنان وزوج فأرسل إليهم فراودوا المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما فأبيا فقال : أني قاتلكما. فقالا : إحسان منك إلينا أن أنت قتلتنا أن تجعلنا في قبر واحد فجعلهما في قبر واحد فقال : وما وجدت ريحاً أطيب منهما وقد دخلت الجنة(١).

وحكى السهيلي عن قوم أنه كان ملكا من الملائكة وليس من بني آدم وعن أبي لهيعة كان ابن فرعون نفسه .

وقيل ابن بنت فرعون .

وقيل اسمه خضرون بن عاييل بن معمر بن عيصون بن اسحاق بن إبراهيم وقيل كان أبوه فارسياً. رواه الطبراني من طريق عبد الله بن شوذب وحكى ابن ظفر في تفسيره أنه كان من ذرية بعض من آمن بإبراهيم . وقيل أنه الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه فلا يموت حتى ينفخ في الصور(٢).

والذي أراه :

— أنه ليس ملكا من الملائكة فالملائكة لا يأكلون ولقد طلب الطعام مع موسى عندما دخلا القرية قال تعالى (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما(٣).

ففاعل استطعم الف الاثنين التي تشمل موسى والخضر عليهما السلام؛

---

(١) قصص الأنبياء حـ ٢ ص ٢١٦ ، ٢١٧

(٢) فتح الباري ص ٤٣٤ (٣) الكهف آية ٧٧

وأيضاً ليس هو المعنى فى قوله تعالى (أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها(١).

لما يأتى :

١ — أن الله سبحانه تحدث عنه بقوله (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما).

والأدلة من هذه الآية :

(أ) أن من شرف باضافته إلى عباد الله يستبعد منه أن يسأل هذا السؤال (أنى يحيي هذه الله بعد موتها).

(ب) أن من علمه الله علما من لدنه ينأى به علمه عن سؤال هذا السؤال .

٢ — قوله (أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها) .

« أو » حرف عطف عطفت ما بعدها على قوله تعالى [ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه (٢)] فدخول همزة الاستفهام على لم تفيد التعجيب وعطف « أو كالذى مر على قرية » عليها يكون المعنى هل رأيت يامحمد كالذى حاج إبراهيم فى ربه ثم اعطف عليه بقوله أو كالذى مر على قرية لأن من ديدن العرب العطف بالكلام على معنى نظير له قد تقدمه وهذا المعنى المعطوف على الكلام السابق يدعو هو أيضا للتعجيب لأن الذى مر على قرية خفيت عليه قدرة الله تعالى . فالمعنيان متشابهان وإن تباينا فى اللفظ . فهل يصدر هذا السؤال من الخضر الذى علمه الله من لدنه علما ؟

---

(١) البقرة آيه ٢٥٨

(٢) البقرة آيه ٢٥٩

وأرد على وهب بن منبه :

قال الطبرى (حدثنا بذلك ابن حميد قال ثنا سلمه قال ثنا ابن اسحاق، قال اسم الخضر فيما كان وهب بن منبه يزعم عن بنى إسرائيل أرميا ابن حلقيا وكان من سبط هرون بن عمران) (١) .

هل يعقل هذا ! كيف يتتلمذ موسى بن عمران على يد حفيد هرون أخيه ؟

وهذا رأى واه والأولى أن لا نعيره اهتماماً .

• السر فى تسميته بالخضر :

لقد سماه الله عبداً من عباده فقال (فوجدا عبداً صالحاً) (٢) ولم يرد تسميته بالخضر إلا فى الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى (عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فاذا هى تهتز من خلفه خضراء (٣)) .

وقيل سمى بالخضر (لأنه كان إذا صلى أخضر ما حوله) (٤) ، وقال الخطابى (إنما سمى الخضر خضراً لحسنه وإشراق وجهه) (٥) .

والصواب مارواه البخارى فليس هنا مجال للاجتهاد بعد قول الرسول صلى الله عليه وسلم .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٣ صـ ١٩ (٢) الكهف آية ٦٥
(٣) فتح البارى جـ ٦ صـ ٤٣٣
(٤) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٥ صـ ١٣٦
(٥) ابن كثير فى قصص الأنبياء جـ ٢ صـ ٢١٨

• نبوة الخضر :

اختلف العلماء فيه من حيث النبوة وغيرها فقالت طائفة منهم : إنه نبي وذهب إلى هذا مكحول ورواه عن كعب الأحبار فعن (مكحول عن كعب الأحبار قال : أربعة من الأنبياء أحياء أمان لأهل الأرض : اثنان فى الأرض الخضر وإلياس واثنان فى السماء إدريس وعيسى)[١] .

وذكر ابن عطية أن أكثر أهل العلم على أنه نبي ،وقال القرطبي هو نبي عند الجمهور وذهبت طائفة أخرى إلى أنه ولى منهم القشيرى والصوفية وذهبت طائفة أخرى إلى أنه من الملائكة ، وقد سبق بطلان هذا الاتجاه.

(قال الإمام النووى : وقال القشيرى وكثيرون هو ولى وحكى الماوردى فى تفسيره ثلاثة أقوال : أحدها : نبي ، والثانى ولي ، والثالث ، أنه من الملائكة) [٢] .

والذى أراه :

أنه نبي وليس رسولا ، وهناك فرق بين النبي والرسول : فالرسول : إنسان حر من بنى آدم أوحي الله إليه بشرع وأمره بتبليغه ، والنبى : إنسان حر من بنى آدم أوحي الله إليه بشرع ولم يؤمره بتبليغه وذلك لإكرام له .

والدليل على نبوته :

أولا : قوله تعالى (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً) .

---

(١) فتح البارى جـ ٦ صـ ٤٣٤

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٥ صـ ١٣٦

وهذه الآية يتفرع عنها دليلان :

١ — كلمة « آتيناه » معناها أعطيناه والمراد بالرحمة وحى أوحى الله به إليه .

٢ — قوله « وعلمناه من لدنا علما » وهذا وحى أيضاً وكلاهما أى الرحمة والعلم من عند الله .

ثانياً : طلب موسى منه أن يعلمه : فهل يتعلم نبى من ولى ؟ كلا .

ولقد شطح بعض الصوفية وزعم أن بعض مراتب الولاية أعلى منزلة من النبوة واستدل بقصة موسى مع الخضر بيد أن نبوة الخضر تدحض مزاعمهم وأيضاً لو كان ولياً لما خاطبه موسى بهذا الخطاب ولم يرد على موسى بهذه الردود .

ثالثاً : أن الخضر لما أقدم على قتل الغلام لم يفعل ذلك إلا بوحى من الله لأن الولى لا يحق له إهدار النفس البشرية لمجرد خاطر أو حديث نفس لأن خاطره ليس واجب العصمة إذ يجوز عليه الخطأ وهذا دليل نبوته .

رابعاً : فى أعقاب بيانه لموسى عن سر خرق السفينة وعن السبب فى قتل الغلام وعن الذى دعاه لبناء الجدار قال (وما فعلته عن أمرى ذلك . .)(١) فيكون هذا وحياً من الله وهذا الوحى لا يكون إلا لنبى .

• زمن الخضر :

يقول الإمام النووى (وذكر الثعلبى ثلاثة أقوال فى أن الخضر كان من زمن إبراهيم الخليل ﷺ أم بعده بقليل أم بكثير)(٢) .

---

(١) الكهف آية ٨٢

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٥ ص ١٣٦

وقيل إنه كان فى عهد ذى القرنين (وروى خيثمة بن سليمان من طريق جعفر الصادق عن أبيه أن ذا القرنين كان له صديق من الملائكة فطلب منه أن يدله على شىء يطول به عمره فدله على عين الحياة وهى داخل الظلمة فسار إليها والخضر على مقدمته فظفر بها الخضر ولم يظفر بها ذو القرنين)(١) وهذه الرواية ساقها الإمام ابن حجر العسقلانى دون تعقيب .

وأقـــول :

١ — لو كان فى الأرض « عين الحيـاة » لحدثنا عنها الرسل ولـكن لم يرد هذا على لسان الرسل ولا على لسان رسولنا محمد ﷺ .

٢ — ألا ترى أن الآجال معلومة وأن الأجل إذا انتهى انتهت حياة الإنسان ووجود العين المزعومة هذه يتنافى مع ذلك .

وقيـل كان نبيـاً فى زمن بشتاسب بن بهراسب ، وقال الثعلبى : هو معمر على جميع الأقوال محجوب عن الأبصار ، وقيل إنه كان فى عهد آدم لأنه ابنه من صلبه ، وقيل كان فى عهد قابيل ابن آدم .

• هل هو حى :

لقد اختلف العلماء فى كونه حياً إلى اليوم أو ميتاً فذهب فريق كبير فى أنه ما زال حياً ويظل حياً إلى يوم القيامة . قال ابن حجر (وقد قيل إنه لا يموت إلا فى آخر الزمان حين يرفع القرآن . وقال ابن الصلاح هو حى عند جمهور العلماء والعامة معهم فى ذلك . وإنما شذ عن ذلك بإنكاره بعض المحدثين وتبعه النووى وزاد أن ذلك متفق عليه بين الصوفية وأهل الصلاح وحكاياتهم فى رؤيته والاجتماع به أكثر من أن تحصر)(٢) .

---

(١) فتح البارى حـ ٦ ص ٤٣٤

(٢) المرجع السابق ملخصاً

السبب فى القول بحياته :

سببان دعوا هذا الفريق إلى هذا القول :

الأول : ما سبق ذكره من شربه من عين الحياة .

الثانى : (ذكر ابن اسحاق : أن آدم عليه السلام لما حضرته الوفاة أخبر بنيه أن الطوفان سيقع بالناس وأوصاهم إذا كان ذلك أن يحملوا جسده معهم فى السفينة وأن يدفنوه معهم فى مكان عينه لهم فلما كان الطوفان حملوه معهم فلما هبطوا إلى الأرض أمر نوح بنيه أن يذهبوا ببدنه فيدفنوه حيث أوصى . فقالوا إن الأرض ليس بها أنيس وعليها وحشة فحرضهم وحثهم على ذلك وقال إن آدم دعا لمن يلى دفنه بطول العمر فهابوا المسير إلى ذلك الموضع فى ذلك الوقت فلم يزل جسده عندهم حتى كان الخضر هو الذى تولى دفنه وأنجز الله ما وعده فهو يحيا إلى ماشاء الله له أن يحيا)(١) .

وأقول :

وهذا سبب بعيد كالأول لما يأتى :

١ — لأن نوحاً لم يحمل فى السفينة شيئاً إلا بوحى من الله تعالى قال تعالى (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ومن آمن وما آمن معه إلا قليل)(٢).

ولو كان هناك أمر بحمل آدم لأتى مع النص دليل على حمله .

---

(١) ابن كثير فى كتابه قصص الأنبياء ج٢ ص ٢١٥

(٢) هود آية ٤٠

٢ — أليس فى الاحتفاظ بجسد آدم عند ذرية نوح انتهاك لحرمة الموتى فإكرام الآدمى بعد موته دفنه فى التراب كما علم الله بنى البشر . قال الله تعالى عن ولدى آدم (فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين)(١) .

وهل يعقل أن يحتفظ بجسد آدم حتى عصر إبراهيم ومابعده بقليل أو كثير . أليس هذا انتهاك لحرمة الموتى .

المهمة التى سيبقى من أجلها :

قيل سيبقى حياً ليكذب الدجال . وأن الرجل الذى سيقتله الدجال ويحييه هو الخضر(روى الدارقطنى فى الحديث المذكور قال : مد للخضر فى أجله حتى يكذب الدجال . وقال عبد الرزاق فى مصنفه عن معمر فى قصة الذى يقتله الدجال ثم يحييه بلغنى أنه الخضر)(٢) .

الأحداث والأقوال التى ساقها العلماء عن حياته وبقائه :

لقد وردت روايات كثيرة عن أناس اجتمعوا به وشاهدوه ولكنها كلها ضعيفة ولا يعتد بها فهى واهية ولقد ضعفها ابن الجوزى وابن كثير ولكن أردت أن أسوقها حتى يكون القارىء على بينة من أمرها :

١ — روى (الحافظ أبو بكر البيهقى قائلا : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أنبأنا أبو بكر بن بالويه حدثنا محمد بن بشر بن مطر حدثنا كامل بن طلحة حدثنا عباد بن عبد الصمد عن أنس بن مالك قال : لما قبض رسول الله

---

(١) المائدة آية ٣١

(٢) فتح البارى حـ ٦ ص ٤٣٤

ﷺ أحدق به أصحابه فبكوا حوله واجتمعوا . فدخل رجل أشهب اللحية جسيم صبيح فتخطى رقابهم فبكى ثم التفت إلى أصحاب رسول الله ﷺ فقال : إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضاً من كل فائت وخلفاً من كل هالك فإلى الله فأنيبوا وإليه فارغبوا وقد نظر إليكم في البلاء فانظروا فإن المصاب من لم يجبر وانصرف . فقال بعضهم لبعض : أتعرفون الرجل؟ فقال أبو بكر وعلي : نعم هو أخو رسول الله ﷺ الخضر عليه السلام . وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا عن كامل بن طلحة به وفي متنه مخالفة لسياق البيهقي)(١) .

ولقد علق البيهقي على سند هذا الحديث فقال (عباد بن عبد الصمد ضعيف فهذا منكر بمرة)(٢) . وعلق ابن كثير على عباد بن عبد الصمد أيضاً فقال (عباد بن عبد الصمد هذا هو ابن معمر البصري روى عن أنس نسخة . قال ابن حبان والعقيلي : أكثرها موضوع . وقال البخاري : منكر الحديث . وقال أبو حاتم : ضعيف الحديث جداً منكره . وقال ابن عدي : عامة ما يرويه في فضائل علي وهو ضعيف غال في التشيع)(٣) .

٢ — وقال الشافعي في مسنده (أنبأنا القاسم بن عبد الله بن عمر عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده علي بن الحسين قال : لما توفي رسول الله ﷺ وجاءت التعزية سمعوا قائلا يقول : إن في الله عزاء من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك ودركاً من كل فائت فبالله ثقوا وإياه فارجوا فإن المصاب من حرم الثواب قال علي بن الحسين أتدرون من هذا ؟ هذا الخضر) (٤) .

---

(١) ابن كثير في كتابه قصص الأنبياء ج٢ ص ٢٢٧ : ٢٢٨

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٨ (٣) المرجع السابق

(٤) المرجع السابق ص ٢٢٨ : ٢٢٩

قال ابن كثير عن شيخ الشافعي القاسم بن عبد الله بن عمر (شيخ الشافعي القاسم العمري متروك . قال أحمـــد بن حنبل ويحيى بن معين . يكذب إذا زاد أحمد ويضع الحديث)(١) .

٣ — روى عبد الله بن وهب عمن حدثه عن محمد بن عجلان عن محمد ابن المنكدر أن عمر بن الخطاب بينما هو يصلي على جنازة إذ سمع هاتفا وهو يقول . لا تسبقنا يرحمـك الله فانتظره حتى لحق بالصف فذكره دعاءه للميت : إن تعذبه فكثيراً عصاك وإن تغفر له ففقيراً إلى رحمتك . ولما دفن قال : طوبى لك يا صاحب القبر إن لم تكن عريفا أو جابيا أو خازنا أو كاتبا أو شرطيا . فقال عمر : خذوا الرجل نسأله عن صلاته وكلامه وعمن هو ؟ قال فتوارى عنهم فنظروا فإذا أثر قدمه ذراع : فقال عمر هذا والله الخضر الذي حدثنا عنه رسول الله ﷺ وهـذا الأثر فيه مبهم وفيـه انقطاع ولا يصح مثله)(٢) ففيه مبهم بين عبد الله بن وهب ومحمد ابن عجلان .

٤ — روى الحافظ بن عساكر عن الثوري عن عبد الله بن المحرر عن يزيد بن الأصم عن علي بن أبي طالب قال : دخلت الطواف في بعض الليل فإذا أنا برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: يامن لا يمنعه سمع عن سمع ويامن لا تغلطه المسائل ويا من لا يبرمه إلحاح الملحين ولا مسألة السائلين ، ارزقني برد عفوك وحلاوة رحمتك قال: فقلت أعد على ما قلت فقال لي: أوسمعته ؟ قلت نعم فقال لي : والذي نفس الخضر بيده قال وكان هو الخضر لا يقولها عبد خلف صلاة مكتوبة إلا غفر الله له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر وورق الشجر وعدد النجوم لغفرها الله له)(٣) .

---

(١) المرجع السابق ص٢٢٩ (٢) المرجع السابق

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٠

قال الحافظ ابن كثير في سند هذا الحديث (وهـذا ضعيف من جهة عبد الله بن المحرر فإنه متروك الحديث ويزيد ابن الأصم لم يدرك علياً ومثل هذا لا يصح والله أعلم)(١) .

وقد روى الترمذي هذا الحديث من طريق آخر عن مالك بن إسماعيل عن صالح بن أبي الأسود عن محفوظ بن عبد الله الحضرمي عن محمد بن يحيي عن علي بن أبي طالب .

وأيضاً هذا السند فيه انقطاع وإبهام وقد رواه ابن الجوزي من طريق أبي بكر بن أبي الدنيا وأيضاً في إسناده مجهول وانقطاع .

٥ — روى الحافظ ابن عساكر عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال . ولا أعلمه إلا مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال (يلتقي الخضر وإلياس كل عام في الموسم فيحلق كل واحد منهما رأس صاحبه و يتفرقان عن هؤلاء الـكلمات :

بسم الله ما شاء الله لا يسوق الخير إلا الله ماشاء الله لا يصرف السوء إلا الله ماشاء الله ما كان من نعمة فمن الله ماشاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله قال وقال ابن عباس : من قالهن حين يصبح وحين يمسى ثلاث مرات آمنه الله من الغرق والحرق والسرق قال وأحسبه قال : ومن الشيطان والسلطان والحية والعقرب)(٢) .

يسوق الحافظ ابن كثير رأى الدارقطني في سند هذا الحديث فيقول (قال الدارقطني في الافراد هذا حديث غريب من حديث ابن جريج لم يحدث به غير هذا الشيخ عنه .

٦ — وروى ابن عساكر من طريق علي بن الحسن الجهضمي إلى علي

---

(١) المرجع السابق (٢) المرجع السابق ص٢٣١

ابن أبي طالب مرفوعاً قال : يجتمع كل يوم عرفة بعرفات — جبريل وميكائيل وإسرافيل والخضر)(١) .

ولقد قال الحافظ ابن كثير عن علي بن الحسن الجهضمي إنه كذاب .

ولقد روى أيضا ابن عساكر حكايات أوردها ابن كثير في قصص الأنبياء وعلق على بعضها وترك البعض الآخر .

٧ — روى ابن عساكر : أن الوليد بن عبد الملك بن مروان — باني جامع دمشق — أحب أن يتعبد ليلة في المسجد فأمر القومة أن يخلوه له ففعلوا فلما كان من الليل جاء في باب الساعات فدخل الجامع فإذا رجل قائم يصلي فيما بينه وبين باب الخضراء فقال للقومة : ألم آمركم أن تخلوه؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين هذا الخضر يجيء كل ليلة يصلي هاهنا وهذه الرواية لم يعلق عليها ابن كثير .

٨ — روى ابن عساكر أيضاً من طريق أبي القاسم بن إسماعيل بن أحمد — إلى أن يصل في السند إلى ضمرة عن السري بن يحيى عن رباح بن عبيدة قال : رأيت رجلا يماشي عمر بن عبد العزيز معتمداً على يديه فقلت في نفسي إن هذا الرجل حاف قال فلما انصرف من الصلاة قلت من الرجل الذي كان معتمداً على يدك آنفا ؟ قال وهل رأيته يا رباح ؟ قلت نعم قال ما أحسبك إلا رجلا صالحاً ذاك أخي الخضر بشرني أني سألي وأعدل .

ولقد علق الحافظ بن كثير على هذه الرواية فقال « وقد قدح أبو الحسين بن المنادي في ضمرة والسري ورباح) .

٩ — ولقد ساق الحافظ بن حجر نفس هذه الحادثة عن يعقوب بن

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣٢

سفيان فى تاريخه وأبى عروبه من طريق رباح بالتحتانية — ابن عبيده وقال فيها (لا بأس برجاله ولم يقع لى إلى الآن خبر ولا أثر بسند جيد غيره[١]) .

١٠ — ولقد ساق الحافظ ابن حجر حادثة أخرى قال روى ابن عساكر فى ترجمة أبى زرعة الرازى بسند صحيح رأى وهو شاب رجلا نهاه عن غشيان أبواب الأمراء ثم رآه بعد أن صار شيخاً كبير على حالته الأولى فنهاه عن ذلك أيضاً قال فالتفت إليه لأكلمه فلم أره فوقع فى نفسى إنه الخضر)[٢].

١١ — وساق الحافظ ابن حجر قولا (وروى البيهقى من طريق الحجاج بن قرافصه أن رجلين كانا يتبايعان عند ابن عمر فقام عليهم رجل فنهاهما عن الحلف بالله ووعظهم بموعظة فقال ابن عمر لأحدهما : اكتبها منه فاستعاده حتى حفظها ثم تطلبه فلم يره . قال : وكانوا يرون أنه الخضر[٣]) .

١٢ — وساق الحافظ ابن حجر رواية قال (وروى أحمد فى الزهد من طريق مسعر عن معن بن عبد الرحمن عن عون بن عبدالله قال : بينما رجل بمصر فى فتنة ابن الزبير مهموما إذ لقيه رجل فسأله فأخبره باهتمامه بما فيه الناس من الفتن فقال قل اللهم سلمنى وسلم منى قال فقالها فسلم : قال مسعر يرون أنه الخضر)[٤] .

ولقد رجح السهيلى بقاءه :

سبق آنفا أن ذكرنا اتجاه الفريق الأول وهو أن الخضر حى ومازال حياً أو أنه كان حياً إلى ما بعد رسول الله ﷺ حسب ما ورد فى صحيح

---

(١) فتح البارى ج٦ ص٤٣٥ (٢) المرجع السابق
(٣) المرجع السابق ص٤٣٦ (٤) المرجع السابق ص٤٣٥

البخارى (أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد)[١] ولقد ساقوا الأخبار السالفة والأحاديث السابقة يستأنسون بها لاتجاههم ويهيأون بها لأفكارهم وهى العمدة عندهم .

ولقد خالفهم أهل الفريق الثانى معارضين لهم صادميين لأفكارهم ميممين وجوههم إلى أن الخضر قد قبض ومات ومن هؤلاء البخارى وإبراهيم الحربى وأبو الحسين بن المنادى وأبو الفرج ابن الجوزى . .

واستدلوا على فكرهم هذا بما يأتى :

أولا : قال الله تعالى (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون)[٢] .

ودليلهم من هذه الآية أن الخضر كان بشراً فقد دخل فى هذا العموم ولا يجوز تخصيص العموم إلا بدليل صحيح ولا دليل صحيح يدل على التخصيص قد ورد عن معصوم حتى يجب قبوله .

ثانياً : قال الله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين)[٣] .

(قال ابن عباس ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بعث محمداً وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه)[٤] .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٦ ص ٨٩ : ٩٠
(٢) الأنبياء آية ٣٤ (٣) آل عمران آية ٨١
(٤) البخارى

فالخضر سواء كان نبياً فقد دخل فى هـــذا الميثاق وإن كان ولياً فقد دخل بالتبع فيه أيضاً . فلو كان حياً فى زمن رسول الله ﷺ لكان أفضل أحواله أن يكون بين يديه يؤمن بما أنزل الله عليه وينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه لأنه إذا كان ولياً فالصديق أفضل منه وإن كان نبياً فموسى أفضل منه فلم يرد فى خـــبر صحيح أنه جاء إلى النبى ﷺ ولا قاتل معه .

ثالثاً : فى حديث الخضر مع موسى عليه السلام قال النبى ﷺ : (يرحم الله موسى لو كان صبر يقص علينا من أمرهما) فلو كان الخضر حياً لما حسن هـذا التمنى ولأحضره الرسول ﷺ بين يديه وأراه العجائب وكان هذا أدعى لإيمان أهل الكتاب .

رابعاً : لقد قال الرسول ﷺ فى يوم بدر يستغفر ويستفتح على من كفر به (اللهم أن تهلك هـــذه العصابة اليوم لاتعبد بعدها فى الأرض) وتلك العصابة هم المؤمنون يومئذ فلو كان الخضر حياً لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته ولم يثبت أنه وقف يوم بدر .

ولو كان موجوداً فى الأرض ما قال الرسول « إن تهلك هـــذه العصابة اليوم لا تعبد بعدها فى الأرض » لأنها لو هلكت لكان هناك من يعبد الله وهو الخضر .

خامساً : (عن عبد الله بن عمر قال صلى بنا رسول الله ﷺ ذا ليـلة صلاة العشاء فى آخر حياته فلما سلم قام فقال : أرأيتكم ليلتكم هـــذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد .

قال ابن عمر فوهل(١) الناس فى مقالة رسول الله ﷺ تلك فيما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة وإنما قال رسول الله ﷺ لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحـــد يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن (٢)) .

وروى (عن أبى سعيد قال لما رجع النبى ﷺ من تبوك سألوه عن الساعة فقال رسول الله ﷺ : لا تأتى مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم(٣) .

وروى هذا من طريق جابر بن عبدالله وفيه (تسألونى عن الساعة وإنما علمها عند الله وأقسم بالله ما على الأرض من نفس منفوسة تأتى عليها مائة سنة)(٤) .

فهذه الأدلة على أن الخضر قد مات (قال ابن الجوزى : فهذه الأحاديث تقطع دابر دعوى حياة الخضر . قالوا فالخضر إن لم يكن قد أدرك زمان رسول الله ﷺ كما هو المظنون الذى يترقى فى القوة إلى القطع فلا إشكال وإن كان أدرك زمانه فهذا الحديث يقتضى أنه لم يعش بعد مائة سنة فيكون الآن مفقوداً لا موجوداً لأنه داخل فى هذا العموم والأصل عـــدم المخصص له حتى يثبت بدليل صحيح يجب قبوله والله أعلم)(٥) .

---

(١) وهل : بفتح الهاء والمضارع بكسرها : أى غلطوا
(٢) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٦ صـ ٨٩ : ٩٠
(٣) المرجع السابق صـ ٩١ (٤) المرجع السابق
(٥) قصص الأنبياء جـ ٢ صـ ٢٣٩ : ٢٤٠

رأى ابن تيمية :

لقد تتبعت رأى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية فى مسألة الخضر فوجدت فى مجموع فتاويه رأيين وهذا يدل على أن المسألة ليست هينة والحكم فيها صعب وعسير .

الرأى الأول : (وسئل رحمه الله عن الخضر وإلياس هل هما معمران؟ بينوا لنا رحمكم الله تعالى فأجاب :

إنهما ليسا فى الأحياء ولا معمران . وقد سأل ابراهيم الحربى أحمد بن حنبل عن تعمير الخضر وإلياس وأنهما باقيان يرويان ويروى عنهما فقال الإمام أحمد من أحال على غائب لم ينصف منه وما ألقى هذا إلا شيطان .

وسئل البخارى عن الخضر وإلياس هل هما فى الأحياء ؟ قال كيف يكون هذا وقد قال النبى ﷺ ولا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو على وجه الأرض .

وقال أبو الفرج بن الجوزى قوله تعالى (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) وليس هما فى الأحياء والله أعلم(١) .

الرأى الثانى :(سئل الشيخ رحمة الله : هل كان الخضر عليه السلام نبياً أو ولياً ؟ وهل هو حى إلى الآن ؟ وإن كان حياً فما تقولون فيما روى عن النبى ﷺ أنه قال ، لو كان حياً لزارنى ، هل هـــذا الحديث صحيح أم لا ؟ .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ج٤ ص ٣٣٧

فأجاب :

أما نبوته : فمن بعد مبعث رسول الله ﷺ لم يوح إليه ولا إلى غيره من الناس وأما قبل مبعث النبي ﷺ فقد اختلف في نبوته ومن قال إنه نبي: لم يقل أنه سلب النبوة بل يقول هو كإلياس نبي لكنه لم يوح إليه في هذه الأوقات وترك الوحي إليه في مدة معينة ليس نفياً لحقيقة النبوة كما لو فتر الوحي عن النبي ﷺ في أثناء مدة رسالته وأكثر العلماء على أنه لم يكن نبياً مع أن نبوة من قبلنا يقرب كثير منها من الكرامة والكمال في الأمة وإن كان كل واحد من النبيين أفضل من كل واحد من الصديقين كما رتبه القرآن وكما روى عن النبي ﷺ أنه قال « ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين أفضل من أبي بكر الصديق » وروى عنه ﷺ أنه قال « إن الرجل ليسمع الصوت فيكون نبيا » وفي هذه الأمة من يسمعه ويرى الضوء وليس بنبي لأن ما يراه ويسمعه يجب أن يعرض على ماجاء به محمد ﷺ فإن وافقه فهو حق وإن خالفه يتيقن أن الذى جاء من عند الله يقين لا يخالطه ريب ولا يحوجه أن يشهد عليه بموافقة غيره .

وأما حياته : فهو حي ، والحديث المذكور لا أصل له ولا يعرف له إسناد بل المروى في مسند الشافعي وغيره أنه اجتمع بالنبي ﷺ ومن قال أنه لم يجتمع بالنبي ﷺ فقد قال ما لا علم له به فإنه من العلم الذي لا يحاط به ومن احتج على وفاته بقول النبي ﷺ « أرأيتكم ليلتكم هذه فإنه على رأس مائة سنه لا يبقى على وجه الأرض ممن هو عليها اليوم أحد فلا حجة فيه فإنه يمكن أن يكون الخضر إذ ذاك على وجه الأرض ولأن الدجال وكذلك الجساسة — الصحيح أنه كان حياً موجوداً على عهد النبي ﷺ وهو باق إلى اليوم لم يخرج وكان في جزيرة من جزائر البحر فما كان من الجواب عنه كان هو الجواب عن الخضر وهو أن يكون لفظ الأرض لم يدخل في هذا الخبر أو يكون أراد ﷺ الآدميين المعروفين

وإما من خرج عن العادة فلم يدخل فى العموم كما لم تدخل الجن وإن كان لفظاً ينتظم الجن والإنس وتخصيص مثل هذا من مثل هذا العموم كثير معتاد والله أعلم)(١).

وجهة نظر :

لقد سقت آراء السابقين ووقفت حيال كل رأى وآن الأوان لأدلى بدلوى فى هذا الشأن فرأيى هذا لا يعدو أن يكون وجهة نظر تتسم بالقبول والرد وبالمدح والقدح .

أولا : أرى أن شخصية الخضر يعلم الله كنهها وهى غريبة الأحوال ومن غرابتها تتلمذ رسول الله موسى على يديه قال الله حاكياً عن موسى (هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا)(٢) وحكى الله رد الخضر عليه قال(إنك لن تستطيع معى صبرا،وكيف تصبر على مالم تحط بهخبرا)(٣) وقع ما قاله الخضر وهو عدم صبر موسى وسؤاله له عقب كل حدث وقع وأنهائه المصاحبة .

ولقد قال رسول الله ﷺ (يرحم الله موسى لوددت أنه لو صبر حتى يقص علينا من أخبارهما)(٤) .

من رد الخضر على موسى قوله وو كيف تصبر على مالم تحط به خبراً،

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية جـ٤ ص ٣٤٠
(٢) الكهف آية ٦٦
(٣) الكهف آية ٦٧ ، ٦٨
(٤) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٥ ص١٤١

وفي هذا الرد بيان بأنه يفوق موسى في بعض العلوم وموسى لم يحط بها علماً ولقد أتت الغرابة من هنا فموسى رسول وكيف يغيب عنه هذا العلم .

ثانياً : في الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ (فانطلق الخضر وموسى يمشيان على ساحل البحر فرت بهما سفينة فكلماهم أن يحملوهما فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول — أجرة — فعمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة فنزعه فقال له موسى قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً ، ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذا غلام يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله)(١).

أهذه قوة بشر ينزع اللوح بيده وهو جزء من السفينة والتعبير بالسفينة يدل على كبرها ؟ وقلعه رأس الغلام بيده يدل على أنه ليس من البشر ؟ وإقامته للجدار بيده دون مساعدة موسى لأنه لو ساعده لقال الله فأقاماه ولكن صور الحديث إقامته بما يأتي (فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه يقول قائل قال الخضر بيده هكذا فأقامه)(٢) وهذه ليست قوة بشر فهذه الأفعال الثلاثة لا تقوم قوة بشرية بفعلها باليد فليس بشراً .

ثالثاً : علمه بالغيب الذي يقع مستقبلا وهو قوله (وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً)(٣) يدل على أنه ليس من الجن فالجن لا يعلمون الغيب .

رابعاً : إنه ليس من الملائكة لأنه طلب الطعام مع موسى (حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها)(٤) .

(١ ، ٢) المرجع السابق ص ١٣٩ : ١٤٠

(٣) الكهف آية ٨٠ (٤) الكهف آية ٧٧

خامساً : يروى الإمام مسلم والإمام البخارى حديثاً فى أمر الخضر :
يروى الإمام مسلم حديثاً عن أبى سعيد الخدرى قال (حدثنا رسول الله ﷺ يوما حديثاً طويلا عن الدجال فكان فيما حدثنا قال يأتى وهو محرم عليه أن يدخل نقاب — أى طرق — المدينة فينتهى إلى بعض السباخ التى تلى المدينة فيخرج إليه رجل هو خير الناس أو من خير الناس فيقول له أشهد أنك الدجال الذى حدثنا رسول الله ﷺ حديثه فيقول الدجال أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته أتشكون فى الأمر فيقولون لا فيقتله ثم يحييه فيقول حين يحييه والله ما كنت فيك قط أشد بصيرة منى الآن قال فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه .

قال أبو اسحاق(١) يقال إن هذا الرجل هو الخضر عليه السلام(٢)

ولقد روى أيضاً فى بعض الطرق أنه شاب. ولقد روى الإمام البخارى حديثاً يكاد يكون كحديث مسلم.

ومخلوق هذه أوصافه لا نملك إلا أن نقول إنه جند من جنود الله كما أخبر بذلك الحق تبارك وتعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر)(٣) .

ولا يعترض بأن الآية تقول (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) أقول كل مخلوق خلقه الله تعالى من أى جنس

---

(١) أبو إسحاق عرفه النووى بقوله (هو ابراهيم بن سفيان راوى الكتاب عن مسلم) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ح ١٦ ص ٧١ : ٧٢
(٢) المرجع السابق ص ٧٢
(٣) سورة المدثر آية رقم ٣١

فهو عبد . قال تعالى « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا »(١)

أما من جهة حياته فهو حى . ولقد قال الإمام النووى فى تفسير حديث أبى سعيد الخدرى « وأبو اسحاق هذا هو ابراهيم بن سفيان راوى الكتاب عن مسلم وكذا قال معمر فى جامعه فى أثر هذا الحديث كما ذكره ابن سفيان وهذا تصريح بحياة الخضر عليه السلام وهو الصحيح »(٢) .

ولقد قال أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلانى شارح صحيح البخارى فى شرح هذا الحديث الذى رواه البخارى ، قال أبو اسحاق — السالف الذكر — يقال إن هذا الرجل هو الخضر وأبو اسحاق هو ابراهيم بن محمد بن سفيان الزاهد راوى صحيح مسلم عنه لا السبيعى كما ظنه القرطبى قال فى الفتح ولعل مستنده فى ذلك ما فى جامع معمر بعد ذكر هذا الحديث قال معمر بلغنى أن الذى يقتله الدجال هو الخضر .

وكذا أخرجه ابن حبان من طريق عبد الرزاق عن معمر قال : كانوا يرون أنه الخضر وقال ابن عربى سمعت من يقول إن الذى يقتله الدجال هو الخضر »(٣) .

ولقد سبق فى الأحداث التى تتعلق بالخضر أحداث صحيحة الإسناد كما وقع لعمر بن عبد العزيز وأبى زرعة الرازى وعلق عليها الحافظ ابن حجر بالصحة .

---

(١) سورة مريم آية رقم ٩٣ .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٦ ص ٧٢ هامش
(٣) إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى جـ ١٠ ص ٢١٣

قال ابن حجر « وقال ابن الصلاح : هو حى عند جمهور العلماء والعامة معهم فى ذلك »(١).

سادساً : ثبت بالحديث أن الدجال وهو أمارة من إمارات القيامة حى .

يروى الإمام مسلم فى صحيحه باب فى قصة الجساسة عن فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس وكانت من المهاجرات الأول قالت سمعت نداء المنادى فنادى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ينادى الصلاة(٢) جامعة فخرجت إلى المسجد فصليت مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فكنت فى صف النساء التى تلى ظهور الرجال فلما قضى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — صلاته جلس على المنبر وهو يضحك فقال ليلزم كل إنسان مصلاه ثم قال أتدرون لم جمعتكم قالوا الله ورسوله أعلم قال : إنى والله ماجمعتكم لرغبة ولا لرهبة ولكن جمعتكم لأن تميما الديرى كان رجلا نصرانيا فجاء يبايع وأسلم وحدثنى حديثا وافق الذى كنت أحدثكم عن مسيح الدجال حدثنى أنه ركب فى سفينة بحرية مع ثلاثين رجلا من لخم وجذام فلعب بهم الموج شهراً فى البحر ثم أرفؤا إلى جزيرة فى البحر حتى مغرب الشمس فجلسوا فى أقرب(٣) السفينة فدخلوا الجزيرة فلقيتهم دابة أهلب كثير الشعر لا يدرون ماقبله من دبره من كثرة الشعر فقالوا ويلك

---

(١) فتح البارى حـ٦ ص ٤٣٤

(٢) الصلاة جامعة : اللفظان منصوبان فاللفظ الأول منصوب على الإغراء والثانى على الحال

(٣) أقرب : جمع قارب بكسر الراء وفتحها وهى سفينة صغيرة تكون مع الكبيرة يتصرف بها ركاب السفينة لقضاء حوائجهم وتجمع على قوارب .

ما أنت فقالت أنا الجساسة(١) قالوا وما الجساسة ؟ قالت أيها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل فى الدير فإنه إلى خبركم بالأشواق قالت لما سمت لنا رجلا فرقنا منها أن تكون شيطانة قال فانطلقنا سراعا حتى دخلنا الدير فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط وأشده وثاقا مجموعة يداه إلى عنقه مابين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد قلنا ويلك ما أنت قال قد قدرتم على خبرى فأخبرونى ماأنتم قالوا نحن أناس من العرب ركبنا فى سفينة بحرية فصادفنا البحر حين اغتلم(٢) فلعب بنا الموج شهرا ثم أرفأنا إلى جزيزتك هذه فجلسنا فى أقربها فدخلنا الجزيرة فلقينا دابة أهلب كثير الشعر فقلنا ويلك ماأنت فقالت أنا الجساسة قلنا وما الجساسة ؟ قالت اعمدوا إلى هذا الرجل فإنه إلى خبركم بالأشواق فأقبلنا إليك سراعا وفزعنا منها ولم نأمن أن تكون شيطانة فقال اخبرونى عن نخــــل بيسان ؟ قلنا عن أى شأنها تستخبر ؟ قال أسألكم عن نخلها هل يثمر ؟ قلنا له نعم . قال أما إنه يوشك أن لايثمر قال اخبرونى عن بحيرة الطبرية قلنا عن أى شأنها تستخبر ؟ قال هل فيها ماء ؟ قالوا هى كثيرة الماء قال إن ماءها يوشك أن يذهب قال فأخبرونى عن زغر(٣) ؟ قالوا عن أى شأنها تستخبر ؟ قال هل فى العين ماء وهل يزرع أهلها بما العين ؟ قلنا له نعم هى كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها قال أخبرونى عن نبى الأميين مافعل ؟ قالوا قد خرج من مكة ونزل يثرب قال أقاتله العرب ؟ قلنا نعم قال كيف صنع بهم فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه . قال لهم قد كان ذلك قلنا نعم قال أما إن ذاك خيراً لهم أن يطيعوه وإنى مخبركم عنى أنى أنا المسيح وإنى أوشك أن يؤذن لى فى الخروج فأخرج فأسير فى الأرض فلا أدع قرية إلا هبط فى أربعين ليلة

---

(١) بفتح الجيم وتشديد السين سميت بذلك لتجسسها لأخبار الدجال

(٢) اغتلم هاج وماج وتجاوز حده

(٣) زغر : بالزاى المضمومة والعين المفتوحة ثم راء : بلدة معروفة فى الجانب القبلى من الشام .

غير مكة وطيبة(١) فهما محرمتان على كلتاهما كلما أردت أن أدخل واحدة أو أحداً منها استقبلنى ملك بيده السيف صلتا يصدنى عنها وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها قالت قال رسول الله ﷺ وطعن بمخصرته فى المنبر هذه طيبة هذه طيبة هذه طيبة يعنى المدينة ألا هل كنت حدثتكم ذلك ؟ فقال الناس نعم فإنه أعجبنى حديث تميم إنه وافق الذى كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة إلا أنه فى بحر الشام أو بحر اليمن . لا بل من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق ما هو وأومأ بيده إلى المشرق . قالت فحفظت هذا من رسول الله ﷺ)(٢) .

فإذا كان الدجال وجساسته أحياء وهما من أمارات الساعة والذى سيخرج من المدينة إلى خارجها هو الخضر فتكون حياته متعلقة بأمارات الساعة فيكون حياً .

الرد على أدله القائلين بموته :

الرد على الدليل الأول : قال تعالى (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون) لقد سبق أن أقمت أدلة على أنه جند من جنود الله يعلم كنهه خالقه فهو ليس بشراً حتى تنطبق عليه الآية بل سيعيش حتى يكذب الدجال ولقد سبق ذلك الحديث الذى رواه الدارقطنى بأنه سيبقى حتى يكذب الدجال ثم يموت بعد ذلك .

الرد على الدليل الثانى والثالث :

قال الله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين) إلخ . هل يأتى الخضر

---

(١) طيبة : هى المدينة المنورة .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٦ ص ٧٩ : ٨٣ .

ويحضر مجلس رسول الله ﷺ أو يقاتل تحت رايته . إن حضوره ليس برغبته فهو بأمر من الله تعالى والذى يلتقى به لا يلتقى به إلا بأمر من الله تعالى . فموسى لم يلتق به إلا مأموراً باللقاء وبمكانه وتوقيته : فالمكان مجمع البحرين والتوقيت وقت ذهاب الحوت فى البحر سربا ولو كان اللقاء برغبة موسى أو رغبة الخضر لطلبه موسى ليستزيد منه بعد أن كشف له الخضر عن سر خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار . فالدجال موجود وجساسته موجودة ومع هذا لم يأت بهما النبى ليتحدث معهما أو يعرف الناس أخبارهما .

الرد على الدليل الرابع :

قول الرسول ﷺ « اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد بعدها فى الأرض » .

يقول القائلون بموته : لو كان حياً لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته ولم يثبت أنه وقف يوم بدر ولو كان موجوداً ماقال الرسول ﷺ الحديث السابق . قلت قبل ذلك إن حضوره أى مكان ليس برغبته بل يكون بأمر من الله تعالى كما كان حضور الملائكة يوم بدر بأمر من الله تعالى « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان)(١) . كذلك قوله « لا تعبد فى الأرض » إن المراد بالأرض جزيرة العرب ويحتمل أن الخضر كان بأرض غير أرض العرب ويعبد الله فيها .

---

(١) الأنفال : آية ١٢

الرد على الدليل الخامس :

والرد عليه من ثلاثة أوجه :

١ — يحتمل أن يكون الخضر ليس موجوداً على الأرض فى تلك الليلة فلا ينطبق عليه الحديث .

٢ — يحتمل أن يكون المعنى (لايبقى ممن هو على ظهر الأرض) أحد معروف لهم .

٣ — يحتمل أن تكون « أل » فى الأرض للعهد فلا يبقى ممن هو على ظهر أرضهم أحد أما غيرها فلا . ويحتمل أن الخضر لم يكن بها .

الأحاديث الواردة فى شأنه

روى الإمام مسلم بسنده عن سعيد بن جبير قال (قلت لابن عباس إن نوفا البكالى يزعم أن موسى عليه السلام صاحب بنى إسرائيل ليس هو موسى صاحب الخضر عليه السلام فقال كذب عدو الله سمعت أبى بن كعب يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: قام موسى عليه السلام خطيباً فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم ؟ فقال: أنا أعلم قال فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه أن عبداً من عبادى بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى أى رب كيف لى به فقيل له احمل حوتاً فى مكتل فحيث تفقد الحوت فهو ثم انطلق وانطلق معه فتاه وهو يوشع بن نون فحمل موسى عليه السلام حوتاً فى مكتل وانطلق هو وفتاه يمشيان حتى أتيا الصخرة فرقد موسى عليه السلام وفتاه فاضطرب الحوت فى المكتل حتى خرج من المكتل فسقط فى البحر قال فأمسك الله عنه جرية الماء حتى كان مثل الطاق(١) فكان للحوت

---

(١) الطاق : عقد البناء وجمعه طيقان يقول الإمام النووى (وهو الأزج وما عقد أعلاه من البناء وبقى تحته خالياً) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٥ ص ١٣٨

سرباً وكان لموسى وفتاه عجباً فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ونسى صاحب موسى أن يخبره فلما أصبح موسى عليه السلام قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً قال ولم ينتبه حتى جاوز المكان الذى أمر به قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا قال موسى ذلك ما كنا نبغى فارتدا على آثارهما قصصا قال يقصان آثارهما حتى أتيا الصخرة فرأى رجلا مسجى عليه بثوب فسلم عليه موسى فقال له الخضر أنى بأرضك السلام قال أنا موسى قال موسى بنى إسرائيل قال نعم قال إنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه وأنا على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه قال موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً قال إنك لن تستطيع معى صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً قال له الخضر فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منـــه ذكراً قال نعم فانطلق الخضر وموسى يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة فكلماهم أن يحملوهما فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول فعمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة فنزعه فقال له موسى قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذا غلام يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله فقال موسى أقتلت نفساً زاكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكرا قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا قال وهذه أشد من الأولى قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه يقول قائل قال الخضر بيده هكذا

فأقامه قال له موسى قوم أتيناهم فلم يضيفونا ولم يطعمونا لو شئت لتخذت عليه أجراً قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا قال رسول الله ﷺ يرحم الله موسى لوددت أنه لو صبر حتى يقص علينا من أخبارهما قال وقال رسول الله ﷺ كانت الأولى من موسى نسيانا قال وجاء عصفور حتى وقع على حرف السفينة ثم نقر فى البحر فقال له الخضر ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هـذا العصفور من البحر قال سعيد بن جبير وكان يقرأ وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً وكان يقرأ وأما الغلام فكان كافراً)(١) .

هذه رواية وهناك روايات فيها زيادة فى حالة الافتقار إلى تلك الزيادة سنوردها إن شاء الله تعالى

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٥ ص ١٣٦ : ١٤٢

الأشخاص الذين ورد ذكرهم فى قصة الخضر

١ — موسى عليه السلام

هو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب ولا خلاف فى نسبه وهذا الاسم سريانى (وأخرج أبو الشيخ من طريق عكرمة عن ابن عباس قال إنما سمى موسى لأنه ألقى بين شجر وماء فالماء بالقبطية « مو » والشجر « سا » وفى الصحيح وصفه بأنه آدم طوال جعد كأنه من رجال شنوءة قال الثعلبى عاش مائة وعشرين سنة)[١] .

وعن أنس بن مالك (أن رسول الله ﷺ قال أتيت وفى رواية هداب مررت على موسى ليلة أسرى بى عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلى فى قبره)[٢] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ (لا تخيرونى على موسى فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش فلا أدرى أكان فيمن صعق فأفاق قبلى أم كان ممن استثنى الله)[٣] .

والرسول ﷺ قال ذلك على سبيل التواضع منه ولا يلزم من خصوصيات موسى أنه أفضل من الرسول ﷺ بل الرسول سيد ولد آدم وهو أفضل مخلوق .

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن جـ ٢ ص ١٣٩
(٢) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٥ ص ١٣٣
(٣) المرجع السابق جـ ١٥ ص ١٤٣

٢ — يوشع بن نون

هو الخليل يوشع بن نون بن أفرائم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم عليهم السلام)(١) .

وهو نبي وقام بأعباء بني إسرائيل بعد رحيل هرون وموسى . وهو الذي ورد ذكره في قوله تعالى « وإذ قال موسى لفتاه » .

٣ — الملك المغتصب

هو هدد بن بدد وكان يغتصب السفن الصالحة دون غيرها من السفن .

٤ — الغلام المقتول

هو : (جيسون بالجيم وقيل بالحاء)(٢) .

وكان طفلا في مرحلة الطفولة المتأخرة وكان هناك مسوغ لإهدار دمه وقتله (وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا) .

ولقد ورد في الحديث الذي رواه مسلم بزيادة عن الرواية التي معنا (وأما الغلام فطبع يوم طبع كافرا وكان أبواه قد عطفا عليه فلو أنه أدرك أرهقهما طغيانا وكفرا)(٣) .

٥ — الأبوان والدا الغلام

هما : (اسم الأب : كازيرا ، والأم : سهوا)(٤) .

---

(١) ابن كثير في كتابه قصص الأنبياء حـ٢ ص ١٩٩
(٢) الإتقان في علوم القرآن حـ٢ ص ١٤٧ .
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي حـ ١٥ ص ١٤٥
(٤) الإتقان في علوم القرآن حـ٢ ص ١٤٧

ولقد مدحهما الله سبحانه بقوله (فكان أبواه مؤمنين) .

وقال ابن كثير فى تفسيره (كان اسمه حيثور)(١) .

٦ — اليتيمان صاحبا الجدار

هما : (صوم ، صويم)(٢) .

٧ — أبوهما

هو الجد السابع وكان يعمل نساجاً وحفظ الغلامان بصلاح جدهما .

---

(١) تفسير ابن كثير حـ٣ ص ٩٨

(٢) الإتقان حـ٢ ص ١٤٧

الأمكنة الواردة فى قصة الخضر

مجمع البحرين :

قال قتادة (« وحتى أبلغ مجمع البحرين ») والبحران بحر فارس وبحر الروم مما يلى المغرب وبحر فارس مما يلى المشرق)(١) أى ملتقى بحر فارس والروم ، ولقد ذهب فريق من العلماء إلى أن مجمع البحرين عند طنجه . عن محمد بن كعب (فى قوله « لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين » قال: طنجه)(٢) وقال فريق (هما الكر والرس بأرمينية وقيل إفريقيا)(٣) .

وقال قوم (ملتقاهما عند البحر المحيط وقيل ملتقى البحرين وهو بحر الأردن وبحر القلزم)(٤) .

والذى أراه :

أن تحديد مجمع البحرين أمر اجتهادى فلو ورد أثر لقـــدم على هذه الاتجاهات الاجتهادية والذى أراه أن أحداث موسى كانت فى مصر أو بالقرب من حدودها والأقرب إلى الصواب فى نظرى أن مجمع البحرين هو ملتقى النيل بالبحر الأبيض . ألا ترى أن الله تعالى قال (مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان(٥) فالمراد بالبحرين الماء العذب بالماء الملح والمراد بالمرج : الخلط .

---

(١) تفسير الطبرى حـ ١٥ ص ١٧٦

(٢) المرجع السابق .

(٣) تفسير أبى السعود حـ ٣ ص ٣٦١

(٤) الفتوحات الإلهية حـ ٣ ص٣٢

(٥) الرحمن آية ١٩ ، ٢٠

السر فى اللقاء فى مجمع البحرين :

١ — إن هذا المكان فيه آية على قدرة الله وعلى علمه فإذا ما التقى ماء النهر بالماء الملح لا يختلط الماء العذب بالماء الملح بل يكون بينهما فاصل ويستقل أحدهما عن الآخر ويبدو للناظر أن خيطا يمر بينهما يفصلهما .

٢ — فى هذا المكان الخالى من كل منغصات الحياة ومكدراتها تستريح النفس، ويصفوا الذهن وتخلو القريحة فيرسخ كل ما يلقى إليها من العلم .

٣ — هذا المكان الذى وصل إليه موسى بشق الأنفس يبعد عن دنيا الناس والعزلة فيه خير من مجتمع فاسد .

تقسيم قصة الخضر إلى مواقف

يمكن تقسيم قصته إلى مواقف متباينة كما يأتى :

• سبب لقاء موسى بالخضر :

لقد ساق الحديث السبب وهو (قام موسى عليه السلام خطيباً فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا أعلم فعتب الله عليه إذلم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه أن عبداً من عبادى بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى أى رب كيف لى به فقيل له احمل حوتا فى مكتل لحيث تفقده الحوت فهو) .

الرحلة إلى الخضر

قال تعالى (وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا ، فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا ، فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا . قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا . فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما)(١) .

مناسبة الآيات بما قبلها :

وردت هذه القصة بعد قول الله تعالى (وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا ، وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا)(٢) .

يقول صاحب فتح القدير فى مناسبة الآيات :

(قيل ووجه ذكر هذه القصة فى هذه السورة أن اليهود لما سألوا النبي ﷺ عن قصة أصحاب الكهف وقالوا : إن أخبركم فهو نبي وإلا فلا .

ذكر الله قصة موسى والخضر تنبيهاً على أن النبى لا يلزمه أن يكون عالما بجميع القصص والأخبار)(٣) .

وأقول: لقد سبق أن قال الله « وربك الغفور ذو الرحمة » فهو رحيم

---

(١) الكهف آية ٦٠ : ٦٥
(٢) الكهف آية ٥٨ ، ٥٩
(٣) فتح القدير آية ٢٩٧

بعباده وإذا تجاوزوا الحدود يمهلهم فاذا زادوا فى ظلمهم حدد لمهلكهم موعدا ، وهذه رحمة بالخلق فقد تزداد قرية فى الظلم فتجر غيرها معها فاهلا كها رحمة بغيرها ثم ساق الله تعالى قصة موسى والخضر ليبين إن إعطاب السفينة كان رحمة بأصحابها فقد كان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً فنجت السفينة من قبضته ، وفى قتل الغلام رحمة بأبويه .

المباحث العربية

« وإذ قال موسى لفتاه » .

الواو للاستئناف ، « إذ » ظرف زمان وهو متعلق بفعل محذوف تقديره « اذكر » والمعنى اذكر وقت أن قال موسى و « موسى » هو موسى ابن عمران من سبط لاوى بن يعقوب وهو رسول بنى إسرائيل والذين قالوا(١) بأنه موسى ابن ميشا بن يوسف بن يعقوب وكان نبيا قبل موسى مخطئون وحجتهم داحضة وهى إن الله أنزل على موسى بن عمران التوراة وكلمه بلا واسطة وخصه بالمعجزات الباهرة التى انفرد بها دون غيره من الأنبياء يبعد أن يبعثه بعد ذلك إلى التعلم والاستفادة .

وحجتهم هذه مردودة بما يأتى :

١ — أنه لا يبعد أن يكون العالم الكامل فى أكثر العلوم يجهل بعض الأشياء فيحتاج فى تعلمها إلى من دونه وهذا أمر متعارف عليه فى كل الأجيال البشرية وليس فى هذا قدح فى موسى ، وسيأتى تفجير لهذه النقطة فيما بعد .

٢ — أن الرسول صرح فى الحـــديث على لسان الخضر بأنه قال له « موسى بنى إسرائيل » ورد على نوف ابن عباس رضى الله عنهما .

٣ — جمهور العلماء على أنه موسى بن عمران وليس موسى بن ميشا .

---

(١) ومن هؤلاء البكالى والذى رد عليه ابن عباس .

قوله : « لفتاه » هذا الفتى هو يوشع بن نون كما صرح به في الحديث السابق .

وفي هذا رد على من زعم أن فتاه عبده .

قوله « لا أبرح » من برح الناقص وهو كزال يزال أي لا أزال أسير فحذف الخبر اعتماداً على قرينة الحال . قوله «حتى أبلغ مجمع البحرين» حتى هنا للغاية . أي لا أزال أسير إلى أن أبلغ « مجمع البحرين » .

وعن محمد بن كعب (في قوله « لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين » قال طنجه)(١) .

وقيل (هما الكر والرس بأرمينية . وقيل إفريقيا)(٢) ، وقيل إن ملتقاهما عند البحر المحيط وقيل ملتقى البحرين هو بحر الأردن وبحر القلزم الأحمر)(٣) .

والذى أراه :

تحديد مجمع البحرين أمر اجتهادي فلو ورد أثر لقدم على هذه الاتجاهات الاجتهادية والذى أراه أن أحداث موسى كانت في مصر أو بالقرب من حدودها ، والأقرب للصواب أن مجمع البحرين عند التقاء النيل بالبحر الأبيض . ألا ترى أن الله تعالى قال (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان) .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٥ صـ ١٧٦
(٢) تفسير أبي السعود جـ ٣ صـ ٣٦١
(٣) الفتوحات الإلهية جـ ٣ صـ ٣٢

قوله « أو أمضى حقبا » :

فيه وجهـــان (أظهرهما أنه منسوق على أبلغ فالسير معنياً بأحد أمرين :

إما ببلوغه المجمع أو بمضيه حقباً . والثانى أنه غاية لقوله : لا أبرح » فيكون منصوبا بإضمار أن بعد « أو » بمعنى إلى نحو لألازمنك أو تقتضينى حقى)[1] .

والحقب : الدهر الطويل ، وقيل ثمانون سنة وقيل سبعون وقيل سنة واحدة بلغة قريش وجمعه أحقاب كعنق وأعناق وقرىء بإسكان القـاف فيجوز أن يكون تخفيفاً ويجوز أن تـكون لغة مستقلة .

قوله « فلما بلغ بجمع بينهما نسيا حوتهما » .

الفاء فاء الفصيحة . « بينهما » ظرف أضيف إلى بجمع « نسيا حوتهما » نسى موسى أن يطلب من يوشع الحوت ونسى يوشع أن يقدمه لموسى . وقيل كان النسيان من يوشع نسى أن يعلم موسى أمر الحوت حيث كان نائماً وقد أحس بخروجه من المكتل إلى البحر ورآه قد اتخذ السرب فرأف بموسى فلم يوقظه وقال انتظر حتى يستيقظ موسى فأخبره بحـال الحوت ثم نسى حتى ارتحلا . وأسند النسيان إليهما مع أن الناسى هو يوشع لأن إسناد الشىء إلى الجماعة وإن كان الذى فعله واحد منهم جائز فى اللغة فإن قيل كيف نسى يوشع ومثله لا ينسى مع دلالته على البغية وهو الوصول إلى الخضر . والجواب على ذلك أن الشيطان غلبه بوساوسه فشتت فـكره وشغل عقله حتى اعتراه النسيان .

---

(١) الفتوحات الإلهية حـ ٣ صـ ٣٢

« الحوت » هو السمك . وقيل كان مملحاً وقيل كان مشوياً . وقيل كان شق حوت وعين واحده وشق آخر ليس فيه شيء .

« فاتخذ سبيله فى البحر سربا » السرب هو المسلك وانتصب على أنه مفعول ثان لاتخذ والجار والمجرور إما حال من السبيل أو من السرب ، ويجوز أن يتعلق باتخذ .

قوله « فلما جاوزا » المفعول محذوف والتقدير مجمع البحرين الذى جعل مكانا للقاء وسارا فى الطريق وأدلجا ومضيا ليلة وغداة إلى الظهر فلما اعترى موسى الجوع (قال لفتاه آتنا غداءنا » أى ما نتغدى به وهو الحوت .

« لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا » اللام الأولى القسم وهذه الجملة فى محل التعليل للأمر « آتنا » ونصبا مفعول به للفعل لقينا ومعناه التعب ونكر للدلالة على التفخيم والتعظيم .

« قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره فاتخذ سبيله فى البحر عجبا » قال الفتى لموسى — عليه السلام «أرأيت» حذف المفعولان والتقدير أرأيت أمرنا ما عاقبته والمعنى: تنبه ويجوز أن تكون بمعنى أخبرنى لأن همزة الاستفهام إن دخلت على رأى تفيد أخبرنى والمعنى أخبرنى عما دهانى وقت التجأنا إلى الصخرة .

« إذ » وقت . « أوينا إلى الصخرة » أى التجأنا إليها وتأوينا عندها ، وذكر الإواء إلى الصخرة مع أن المنشود هو مجمع البحرين لزيادة تعيين محل الحادثة فإن المجمع محل متسع وتقييد القدر فإن الإواء إلى الصخرة ، والنوم عندها مما يدعو إلى النسيان غالباً . ولقد وقع النسيان على اسم الحوت دون أن يذكر ضمير الغداء فإنه المأمور بإتيانه « آتنا غداءنا » لأن طعامهم هو الحوت دون غيره ويقول أبو السعود فى هذا السبب (وإيقاع النسيان على اسم الحوت دون ضمير الغداء مع أنه المأمور بإتيانه التنبيه من

أول الأمر على أنه ليس من قبيل نسيان المسافر زاده فى المنزل وأن ماشاهده ليس من قبيل الأحوال المتعلقة بالغداء من حيث هو غداء وطعام بل من حيث هو حوت كسائر الحيتان مع زيادة إنى نسيت أن أذكر لك أمره، وما شاهدت من الأمور العجيبة)(١) .

« وما أنسانيه إلا الشيطان » بوساوسه ويجوز ضم الضمير وكسره.

« أن أذكره » أن وما دخلت عليه فى تأويل مصدر بدل اشتمال من الضمير . « الهاء فى أنسانيه ».

« واتخذ سبيله فى البحر عجبا » .

يقول أبو السعود هذا (بيان لطرف من أمر الحوت منبىء عن طرف آخر منه وما بينهما اعتراض قدم عليه للاعتناء بالاعتذار كأنه قيل حى واضطرب ووقع فى البحر واتخذ فيه سبيلا عجبا . فعجبا ثانى مفعول اتخذ والظرف حال من أولها أو ثانيهما أو هو المفعول الثانى وعجباً صفة مصدر محذوف أى اتخاذاً عجبا)(٢) .

« قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا » .

القائل هو موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام «ذلك» المشار إليه هو أمر الحوت ، « ما كنا نبغ » ما اسم موصول بمعنى الذى والمعنى ذلك الذى كنا نبغيه أى نطلبه كون هنا أمارة على الفوز بالمقصود .

« نبغ » وقرىء بإثبات الياء والضمير العائد إلى اسم الموصول محذوف فأصله نبغيه وحذفت الياء فى القراءة الأولى على التشبيه بالفواصل .

---

(١) تفسير أبى السعود حـ٣ صـ٣٩٢

(٢) تفسير أبى السعود حـ٣ صـ ٣٩٢ : ٣٩٣

« فارتدا على آثارهما قصصا » الفاء عاطفة ومعنى فارتدا أى رجعا «على آثارهما» طريقهما الذى أتيا منه « قصصا » قصصاً مفعول مطلق على المعنى فمعناه ارتداد أو يجوز أن يكون مصدر محذوف والتقدير فارتدا يقصان قصصا ويجوز أن يكون فى موضع الحال التنكير فى قوله «عبداً» للتفخيم والتعظيم .

« من عبادنا » الجار والمجرور فى محل نصب صفة . « عبداً » والإضافة للتشريف .

« آتيناه رحمة » هذه الجملة صفة ثانية والمراد بالرحمة النعمة .

« من عندنا » صفة لرحمة . « وعلمناه من لدنا علما » المراد بالعلم الأمور الغيبية وهى مفعول به . وفى قوله « من لدنا » تفخيم لشأن ذلك العلم وتعظيم له .

آداب طالب العلم :

قال الله تعالى (قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً . قال إنك لن تستطيع معى صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا . قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً . قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا) .

المباحث العربية

« قال له موسى » هذا استئناف مبنى على سؤال نشأ من سياق الآيات، فكأنه قيل فماذا جرى بينهما من الكلام فقيل قال له موسى «هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا » هذا استئذان من موسى فى اتباع العبد الصالح » وقوله « على أن تعلمن » فى موضع الحال أى أتبعك بإذلالى . والكاف فى أتبعك هو صاحب الحال « مما علمت رشدا » مما مكونه من من التبعيضية

و «ما» وهى موصولة وعلمت فعل ماض مبنى للمجهول وتاء المخاطب نائب فاعل والجملة صلة الموصول .

و «رشدا» أى علما :

ذا رشد أرشد به فى دينى وفى سلوكى . والرشد . إصابة الخير وقرىء رشداً بفتحتين وهو المفعول الثانى لـ «تعلمن» والأول الياء المحذوفة بعد نون الوقاية .

«قال إنك لن تستطيع معى صبرا» قال الخضر «لن تستطيع معى صبرا» نفى عن موسى استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد .

«وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا» هذا تعليل لنفى استطاعة الصبر وهو أنه يعلم أموراً خفية باطنها الشفقة وظاهرها الظلم والفساد . وصاحب الشريعة يعترض على ظواهرها ويشمئز منها فهو لم يحط بها علما و «خبرا» مفعول مطلق لأن معنى تحط تخبر .

«قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمرا» قال موسى : «ستجدنى» معك صابراً . وجملة إن شاء الله معترضة بين المفعول الثانى للفعل «ستجدنى» و «ولا أعصى لك أمرا» الفعل المنفى معطوف على «صابرا» وهو عطف فعل على شبيه به والمعنى وغير عاص لك أمرا .

«قال فإن اتبعتنى فلا تسألن عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا» قال الخضر «فإن اتبعتنى» الفاء للتفريع أى لتفريع الشرطية على مامر من التزام موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام للصبر والطاعة .

«فلا تسألنى عن شىء» يقع منى فتراه فلا تناقشنى عن حكمته ولا تعترض «حتى أحدث لك منه ذكرا» حتى أذكر لك حكمته منى إبتداء .

درس الرحلة

الدرس الأول :

(فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرا ، قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً ، قال لاتؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا) .

المباحث العربية

« فانطلقا » الفاء للإستئناف أى انطلق الخضر وموسى ومعهما يوشع ابن نون ولم يعبر القرآن بقوله فانطلقوا لأن الأصل فى الرحلة الخضر وموسى أما يوشع فهو على الهامش ، والمعنى فانطلقا يمشيان على ساحل البحر يطلبان سفينة يركبانها ، « حتى إذا ركبا فى السفينة » حتى لانتهاء الغاية .

وخرت السفينة فلما بلغت اللج « خرقها » خرق الخضر السفينة فاقتلع لوحاً أو لوحين ، « قال أخرقتها لتغرق أهلها » أى قال موسى « أخرقتها » الهمزة للإنكار ، «لتغرق» اللام لام التعليل وقرىء بالياء وفتحها ورفع أهلها والمعنى أخرقتها ليغرق أهلها ، لقد جئت شيئاً إمرا ، أى لقد أتيت شيئاً عظيماً فى الإنكار فكلمة « إمراً » عظيما ، « قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً » أى قال الخضر «ألم» كلمة مكونة من همزة الاستفهام ولم حرف نفى وجزم والمراد منها أحد أمرين :

١ — التبيين والتذكير .

٢ — التعجب من الأمر الذى ذكرت فى سياقه .

والمراد فى هذه الآية التنبيه والتذكير وقوله «إنك لن تستطيع معى صبرا» هذا القول هو الذى قاله الخضر لموسى قبل ذلك «قال إنك لن تستطيع معى صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا» .

«قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا» قال موسى للخضر معتذراً عما بدر منه وهو «أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرا» أى عظيما منكرا يقال أمر الأمر أى عظم .

«لا تؤاخذنى بما نسيت» «لا» ناهيه «بما نسيت» يجوز فى ما أن تكون موصولة ويكون المعنى : لا تؤاخذنى بالذى نسيته ويجوز أن تكون مصدرية أى لا تؤاخذنى بنسيانى . («قال لا تؤاخذنى بما نسيت» أى بالذى نسيته أو بشىء نسيته يعنى وصيته بأن لا يعترض عليه بنسيانه إياها وهو اعتذار بالنسيان أخرجه فى معرض النهى عن المؤاخذة مع قيام المانع وهو النسيان لها وقيل أراد بالنسيان الترك أى لا تؤاخذنى بما تركت أول مرة من وصيتك أول مرة وقيل إنه من معاريض الكلام والمراد شىء آخر نسيه)[1] .

«ولا ترهقنى من أمرى عسرا» «لا» ناهية . «ترهقنى» («رهقه» كفرح غشيه ولحقه أو دنا منه سواء أخذه أو لم يأخذه)[2] .

والمعنى : ولا تغشى عسرا بالمضايقة والمؤاخذة على المنسى فإن ذلك يعسر على متابعتك : وموقع عسرا من الإعراب مفعول ثان لترهقنى والمفعول الأول الياء .

---

(١) الفتوحات الإلهية جـ ٣ ص ٣٧

(٢) القاموس المحيط جـ ٣ ص ٢٤٧

الدرس الثانى :

(فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا . قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا) .

المباحث العربية

« فانطلقا » بعد خروجهما من السفينة « حتى إذا لقيا غلاما » « غلاما » يطلق الغلام على من كان فى سن من حين ولادته إلى أن يشب وجمعه أغلمه وغلمة وغلمان . «فقتله» أتى بالفاء مع أنه قال قبل ذلك «حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها » وقال «حتى إذا لقيا غلاما فقتله» فلماذا أتى بالفاء فى الثانى دون الأول :

لقد جرد الفعل « خرقها » من الفاء وهو فعل ماض مبنى على الفتح فى محل جزم جواب الشرط : وليس هذا الفعل من الأمور التى تقترن بالفاء إن وقعت جواباً للشرط . أما الفعل قتله فهو معطوف على فعل الشرط «لقيا» فالفاء عاطفة .

وجواب الشرط « قال أقتلت نفساً » .

« زكية » أى طاهرة بريئة لم تبلغ حد التكليف وقرىء زاكيه .

« بغير نفس » أى لم تقتل نفسا حتى تقتل . الجار والمجرور يجوز فيه أوجه ثلاثة :

(أ) يجوز أن يتعلق بقتلت .

(ب) يجوز أن يتعلق بمحذوف هو حال من الفاعل أو المفعول والتقدير أى قتلته ظالما أو مظلوما وهذا بعيد .

(ح) يجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف والتقدير قتلا بغير نفس .

« لقد جئت شيئا نكرا » لقد فعلت شيئا منكرا . ونكرا ولقد قرأ نافع وأبو بكر وابن ذكوان بضم النون والكاف وقرأ غيرهما بضم النون وسكون الكاف .

لطيفـــه :

قال صاحب الفتوحات الإلهية رحمه الله « هل النكر أبلغ من الأمر أو بالعكس — حيث فى الأولى لقد جئت شيئا إمرا وقال هنا لقد جئت شيئا نكرا(١) — فقيل الأمر أبلغ لأن قتل أنفس بسبب الخرقه أعظم من قتل نفس واحدة وقيل بل النكر أبلغ لأن معه القتل بالفعل بخلاف خرقه السفينة فإنه يمكن تداركه ولذلك قال ألم أقل لك ولم يأت بلك مع إمرا)(٢) .

« قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا » زاد ذلك لعدم العذر هنا وذلك تحاملا فى الخطاب وتقريعاً لموسى ولذلك قال موسى « إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا » والمعنى إن سألتك عن شىء بعد هذه المرة (فلا تصاحبنى) لا تتركنى أصاحبك « قد بلغت من لدنى عذرا » أى قد وجدت عذراً من قبلى لا منك وذلك لمخالفتى لك ثلاث مرات .

عامة القراء على تشديد نون (لدنى) وذلك لأنهم أدخلوا على لدن نون الوقاية ليقيها من الكسر محافظة على سكونها كما حوفظ على سكون نون من وعن فألحقت بهما نون الوقاية فيقال مـــنى وعنى بالتشديد وقرأ نافع

---

(١) ما بين الخطين ليس من كلام الشيخ

(٢) الفتوحات الإلهية حـ ٣ ص ٣٨

بتخفيف النون وعلى ذلك لم تلحق نون الوقاية لدن بل حركت نونها بالكسر لمناسبة الياء ومعنى الكلمة ظرف مكان . والعذر هو : تحرى الإنسان ما يمحو به ذنباً اقترفه .

الدرس الثالث :-

(فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا قال هـذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا)

« أتيا أهل قرية » المراد بها أنطاكيه وقيل أيله «استطعما أهلها» أى طلبا منهم الطعام على سبيل القرى . «فأبوا أن يضيفوهما» «أبوا» كرهوا إنزالهما الديار على سبيل الضيافة ومعنى ضاف مال وقرىء بتشديد الياء وقرىء بالتخفيف . وأن ومادخلت عليها فى محل نصب مفعول به لأبوا «فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض» قال بعض العلماء ارتفاع الجدار مائة ذراع وعرضه خمسون ذراعا وامتداده على وجه الأرض خمسمائة ذراع وسمكه مائة ذراع وهذا القول من الأمور التى يجب على الإنسان أن يغض الطرف عنها «يريد» أن ينقض استعيرت الإرادة للمشارفة على السقوط وذلك للمبالغة فى الإسراع للسقوط . وينقض يسقط .

« فأقامه » قيل مسحه بيده فاعتدل وقيـــل نقضه وبناه وقيل أقامه بعمود عمده .

« قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا » .

« قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً » تحريضاً له على أخذ الجعل لينعشا به أو تعريضاً بأنه فضول لما فى لو من النفى كأنه لما رأى الحرمان ومساس الحاجة واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك الصبر . واتخذ افتعل من تخذ بمعنى

أخذ كاتبع من تبع وليس من الأخذ عند البصريين وقرىء لتخذت أى لاتخذت وقرىء بإدغام الذال فى التاء(١) .

« قال هذا فراق بينى وبينك » أى هذا الوقت وقت فراق بينى وبينك « سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً » السين للتوكيد حيث لا وجود للفراد « بتأويل مالم تستطع عليه صبرا » والمراد بالتأويل إظهار ما كان خافياً وباطناً ببيان وجهه أو تفسير مامضى من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار (وقيل فى تفسير هذه الآيات التى وقعت لموسى مع الخضر أنها حجة عليه وعتب عليه وذلك أنه لما أنكر خرق السفينة نودى ياموسى أين كان تدبيرك هذا وأنت فى التابوت مطروحاً فى اليم . فلما أنكر أمر الغلام قيل له أين إنكارك هذا من وكزك للقبطى وقضائك عليه . فلما أنكر إقامة الجدار نودى أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر) (٢) .

إظهار ماخفى من الدروس الثلاثة :ـ

(أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا . وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفرا فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ومافعلته عن أمرى ذلك تأويل مالم تستطع عليه صبرا) .

---

(١) تفسير أبى السعود حـ ٣ ص ٣٩٦ .

(٢) القرطبى حـ ١١ ص ٣٢ .

« أما السفينة فكانت لمساكين يعلمون في البحر » أما : حرف تفصيل لا محل له من الإعراب فلقد أجمل في قوله « سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا » ثم فصل بعد ذلك . السفينة هي الفلك التي تجري في البحر وجمع السفينة : سفن بحذف الهاء ، وسفائن وسميت بذلك لأنها عند سيرها كأنها تسفن الماء أي تقشره وصاحبها سفان .

« لمساكين » لقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن المسكين أحسن حالا من الفقير (قال كعب وغيره كانت لعشرة أخوة من المساكين ورثوها من أبيهم خمسة زمنى وخمسة يعملون في البحر وقيل كانوا سبعة لكل واحد منهم زمانة ليست بالآخر وقد ذكر النقاش أسماءهم فأما العمال منهم فأحدهم كان مجذوما والثاني أعور والثالث أعرج والرابع آدر والخامس محموما لا تنقطع عنه الحمى الدهر كله وهو أصغرهم والخمسة الذين لا يطيقون العمل أعمى وأصم وأخرس ومقعد ومجنون وكان البحر الذي يعملون فيه ما بين فارس والروم) (١) .

« فأردت أن أعيبها » أي جعلها ذات عيب .

« وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » قرأ ابن عباس وسعيد ابن جبير « صحيحة » وقرأ ابن عباس أيضاً وعثمان بن عفان « صالحة » وقرأ ابن عباس وابن جبير « وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » والمعنى أي وكان وراءهم ملك ظالم يغتصب كل سفينة صالحة .

« وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما » أبواه : الأب

---

(١) المرجع السابق ص ٣٤ .

كافرا ، والآم سهوا ، . « فخشينا » أى خفنا أن يغشاهما طغيانا وكفرا ومعنى خشينا : قيل بمعنى العلم وقيل بمعنى الكراهة وقال ابن عطية (والأظهر عندى فى توجيه هذا التأويل وإن كان اللفظ يدافعه أنها استعارة أى على ظن المخلوقين والمخاطبين لو علموا حاله لوقعت منهم خشية الرهق للأبوين وقرأ ابن مسعود « فخاف ربك »)(١) وقراءة ابن مسعود هذه تؤخر وتقدم القراءة الأخرى .

« فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما » ، « أن يبدلهما » قرىء بفتح الباء وتشديد الدال وقرأ عاصم بسكون الباء وتخفيف الدال والمعنى فأردنا أن يرزقهما الله ولداً خيراً منه فى الدين والصلاح « وأقرب رحما » أى وأوصل رحما . ورحما بضم الراء لغة فى رحمة يقال رحمه رحمه ورحما وألفه للتأنيث ومذكره رحم . وقرأ ابن عباس « وأوصل رحما » وقرأ أيضا أزكى منه (٢) .

(وعن ابن جبير وابن جريج أنهما بدلا جارية قال الكلبي فتزوجها نبى من الأنبياء فولدت له نبياً فهدى الله تعالى على يديه أمة من الأمم . وقال قتادة ولدت اثنى عشر نبياً)(٣) .

« وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد » ، اليتيمين هما أصرم وصريم(٤) .

« وكان تحته كنز لهما » الكنز هو المال المجموع : ولقد فسر ابن عباس الكنز (قال ابن عباس كان علماً فى صحف مدفونه : وعنه أيضا قال كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن . عجبت

---

(١) المرجع السابق ص ٣٧ .
(٢) انظر تفسير القرطبى حـ ١١ صـ ٣٧ .
(٣) المرجع السابق . (٤) المرجع السابق .

لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب عجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح .
عجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل عجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها
كيف يطمئن : لا إله إلا الله محمد رسول الله ؛ وروى نحوه عن عكرمة وعمر
مولى غفرة ورواه عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي ﷺ) (١) :

« وكان أبوهما صالحاً » ظاهر النص هو والدهما من صلبه وقيل هو
الأب السابع أى الجد السابع وقيل الجد العاشر ولقد سماهما القرطبي :
فالأب كاشح والأم دنيا فالله سبحانه وتعالى يحفظ الأبناء والأحفاد لحفظ
الآباء لله تعالى .

« فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من
ربك » فى الغلام قال « فأردنا أن يبدلهما ربهما » وهنا قال « فأراد ربك »
لأن فى الأولى قتل وهو بإرادة الله فقال ذلك تأدباً مع الله . كما قال ابراهيم
« الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو
يشفين » فأسند المرض إليه تأدباً مع الله .

وكذلك « فأردت أن أعيبها » ولقد ذكر جلال الدين المحل أن التعبير
بقوله « فأردت » وقوله « فأردنا » وقوله « فأراد ربك » للتنويع فى العبارة
« رحمة » منصوبة على المصدر والجار والمجرور صفتها .

« ومافعلته عن أمرى » ما نافيه أى ومافعلت هذه الأمور عن اختيارى .
« ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبراً » « ذلك » اسم الاشارة مشار به إلى الأجوبة
الثلاثة وهو مبتدأ وتأويل خبره أو تفسيره و « ما » اسم موصول مضاف إلى
الخبر و « تسطع » حذفت منه التاء والتخفيف هنا لمناسبة تخفيف الأمر على
موسى عليه السلام حيث عرف تأويل ماسبق بخلاف قوله « سأنبئك بتأويل
مالم تستطع » فلم يكن يعلم شيئاً فكان الأمر ثقيلا عليه فناسبه التثقيل « مالم
تستطع » لأن زيادة المبنى يدل على زيادة المعنى .

---

(١) المرجع السابق .

معنى الآيات

واذكر يا محمد وقت أن قال موسى بن عمران لتلميذه يوشع بن نون لا أزال أسير حتى أصل مجمع البحرين أو أسير دهراً طويلا ومضيا حتى نزلا بمكان قرب البحر فنام موسى وأحيا الله الحوت فسار إلى البحر وقام موسى وواصلا السير فلما وصلا إلى بين مجمع البحرين نسى يوشع أن يذكر لموسى حياة الحوت ونسى موسى السؤال عنه «فاتخذ الحوت سبيله في البحر فشق طريقه وتجمد موضع الطريق فظل فارغا . «فلما جاوزا» موسى ويوشع ذلك المكان بالسير إلى وقت الغداء من ثانى يوم قال موسى ليوشع آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا تعباً قال له يوشع أرأيت ما دهانى وقت أن أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ الحوت طريقه إلى البحر عجبا أى متعجب منه يوشع وموسى قال له موسى ذلك أى فقدان الحوت هو الذى كنا نبغيه فهو آية لنا على وجود العبد الصالح فرجعا يتتبعان آثارهما فأتيا المكان فرأى موسى موضع سلوك الحوت فارغا . وأنهما مشيا عليه متتبعين أثر الحوت حتى أفضى بهما طريق الحوت إلى جزيرة في البحر وفيها وجدا الخضر «فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما».

قال له موسى بأدب النبى المستفهم غير الجازم طالباً العلم «هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا». ولما كان علم العبد ليس هو العلم البشرى الواضح الأسباب فهو جانب من العلم اللدنى بالغيب وظواهره تصطدم بالمنطق العقلى قال العبد «إنك لن تستطيع معى صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا». ويصر موسى بإلحاح يستفاد من قوله «ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا» ثم أخذ العبد يبين شروط المصاحبة قبل بدء الرحلة وهو أن يصبر فلا يسأل ولا يستفسر حتى يحدث له منه ذكر «قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا» .

وبدأت الرحلة :

فانطلقا على شاطىء البحر وما أجمل السير على شط آن الأبحر ففيه الصفاء الذى يساعد على رسوخ العلم فركبا سفينة وهم فى وسط اللجة يخرق العبد الصالح السفينة وهذا العمل مخالف للعقل والمنطق فى ظاهره فنسى موسى قيله ولا أعصى لك أمراً، ونسى شرط العبد الصالح «فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً، فأنكر موسى عليه خرق السفينة قال : «أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً» فرد عليه مذكراً إياه «ألم أقل لك لن تستطيع معى صبراً» . ويقدم موسى اعتذاره بالنسيان ويطلب من العبد الصالح أن يقبل عذره «قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسراً» فيقبل العبد الصالح عذره .

وانطلقا حتى إذا لقيا طفلا فى مرحلة الطفولة المتأخرة عمد إليه العبد الصالح فقتله من غير جريرة فعلها وهو مجرد من التكليف وهذه فظيعة فى نظر موسى فلم يستطع أن يسيطر على مشاعره فأنكر ذلك «قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً» وهذه المرة ليس ناسياً ولا غافلا ولا ساهياً بل قصد أن ينكر عليه ذلك. فوقف العبد يرده إلى شرطه هذه المرة «قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً»

ويعود موسى إلى نفسه ويجد أنه أخلف وعده مرتين فيندفع ويقطع الصحبة ويجعلها آخر فرصة أمامه «قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً» فانطلقا حتى إذا دخلا قرية أتيا أهلها وطلبا منهم طعاما على سبيل الضيافة فامتنعوا بشدة أن يقدموا لهما الطعام وأثناء جولانهما فى القرية وجدا فيها جداراً أشرف على السقوط فبناه العبد الصالح. قال له موسى لو شئت لاتخذت عليه أجرا حتى تأكل. ووقع ما شرطه موسى قال العبد : هذا فراق بينى وبينك سأخبرك بتفسير ما لم تصبر عليه . وطفق يبدد الغموض ويزيل المبهم ويبين المجهول فيفصل

ما أوجزه بقوله «سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا» فقال: أما السفينة فكان أصحابها مساكين يأكلون من العمل وكان أمامهم ملك ظالم له قراصنة يسرقون السفن يأخذون كل سفينة صالحة غصبا من أجل هذا جعلت فيها عيباً حتى يتركوها لهؤلاء المساكين.

وأما الغلام فهو كافر طاغ بطبيعته ويزيد هذا الكفر على الزمن بروزاً وله أبوان مؤمنان فلو عاش لقادهما بدافع حبهما له إلى اتباعه في كفره ولأرهقهما طغياناً وكفرا فأردنا بعد أن أراد الله أن يبدلهما خيراً منه وأرحم بوالديه وأوصل رحما.

وأما جدار القرية فكان مملوكا لطفلين يتيمين في المدينة البخيلة، وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري، ذلك تفسير ما لم تستطع عليه صبرا.

العلم الرابع

العــزير

اسمه :

لقد اختلف العلماء فى اسمه فقال فريق منهم هو العزير وذهب إلى هذا فريق من العلماء منهم ناجية بن كعب وسليمان بن بريدة وقتادة وعكرمة والسدى وابن عباس (حدثنا محمد بن بشار قال ثنا عبدالرحمن قال ثناسفيان عن أبى اسحاق عن ناجية بن كعب أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال قال عزير حدثنا ابن حميد قال ثنا يحيى ابن واضح قال ثنا أبو خزيمة قال سمعت سليمان بن بريدة فى قوله أو كالذى مر على قرية قال هو عزير .

حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال ذكر لنا أنه عزير ، حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرازق قال أخبرنا معمر عن قتادة حدثت عن عمار قال ثنا ابن أبى جعفر عن أبيه قوله أو كالذى مر على قرية قال قال الربيع ذكر لنا والله أعلم أن الذى أتى على القرية هو عزير . حدثنا القاسم قال ثنا الحسين قال ثنى حجاج عن ابن جريج عن عكرمة أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال عزير حدثنى موسى قال ثنا عمرو قال ثنا أسباط عن السدى أو كالذى مر على قرية قال عزير . حدثت عن الحسين قال سمعت أبا معاذ يقول أخبرنا عبيد بن سليمان قال سمعت الضحاك يقول فى قوله أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عرشها إنه هو عزير ، حدثنى يونس قال : قال لنا سالم الخواجى كان ابن عباس يقول هو عزير) (١) .

---

(١) تفسير الطبرى جـ٣ صـ١٩

وذهب فريق آخر إلى أنه أرميا بن حلقيا، وذهب إلى هذا محمد بن إسحاق ووهب بن منبه (وقال آخرون هو أرميا بن حلقيا وزعم محمد بن إسحاق أن أرميا هو الخضر .

حدثنا بذلك ابن حميد قال ثنا سلمه قال ثنا ابن إسحاق قال اسم الخضر فيما كان وهب ابن منبه يزعم عن بنى اسرائيل أرميا بن حلقيا)(١) . وذهب إلى ذلك عبيد بن عمير .

ولقد قال ابن جرير (وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال إن الله تعالى ذكره عجب نبيه ﷺ ممن قال إذ رأى قرية خاوية على عروشها أنى يحيى هذه الله بعد موتها مع علمه أنه إبتدأ خلقها من غير شىء فلم يقنعه علمه بقدرته على إبتدائها حتى قال أنى يحيها الله بعد موتها ولا بيان عندنا من الوجه الذى يصح من قبله البيان على اسم قائل ذلك وجائز أن يكون ذلك عزيرا وجائز أن يكون أرميا ولا حاجة بنا إلى معرفة اسمه إذ لم يكن المقصود بالآية تعريف الخلق اسم قائل ذلك وإنما المقصود بها تعريف المنكرين قدرة الله على إحيائه خلقه بعد مماتهم وإعادتهم وأنه الذى بيده الحياة والموت من قريش ومن كان يكذب بذلك من سائر العرب)(٢) .

والذى أراه :

أن المقصود عزير بدليل وجوده فى القرآن فى قوله « وقالت اليهود عزير بن الله وقالت النصارى المسيح بن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون » (٣) .

فيحتمل أن يكون منشأ قولهم هذا هو إماتته وبعثه فى الدنيا فقالوا هذا القول .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) تفسير الطبرى جـ٣ صـ٣٠
(٣) سورة التوبة آية ٣٠

ولقد ذكر الحافظ بن كثير احتمالا آخر عن السدى فقال (ذكر السدى وغيره أن الشبهة التى حصلت لهم فى ذلك أن العمالقة لما غلبت على بنى اسرائيل فقتلوا علماءهم وسبوا كبارهم بقى العزير يبكى على بنى إسرائيل وذهاب العلم منهم حتى سقطت جفون عينيه فبينما هو ذات يوم إذ مر على جبانة وإذا امرأة تبكى عند قبر وهى تقول وامطعماه واكاسياه فقال لها ويحك من كان يطعمك قبل هذا قالت الله قال فإن الله حى لا يموت قالت ياعزير فمن كان يعلم العلماء قبل بنى اسرائيل ؟ قال الله قالت فلم تبكى عليهم ؟ فعرف أنه شىء وعظ به ثم قيل له أذهب إلى نهر كذا فاغتسل منه وصل هناك ركعتين فإنك ستلقى هناك شيخاً فما أطعمك فكله فذهب ففعل ما أمر به فإذا الشيخ فقال له أفتح فمك ففتح فمه فألقى فيه شيئاً كهيئة الجمرة العظيمة ثلاث مرات فرجع العزير وهو من أعلم الناس بالتوراة فقال يا بنى إسرائيل قد جئتكم بالتوراة فقالوا ياعزير ما كنت كذاباً فعمد فربط على إصبع من أصابعه قلماً وكتب التوراة بإصبعه كلها فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء أخبروا بشأن عزير فاستخرجوا النسخ التى كانوا أودعوها فى الجبال وقابلوه بها فوجدوا ماجاء به صحيحاً فقال بعض جهلتهم إنما صنع هذا لأنه ابن الله) (١) .

ولى ملاحظتان على قول السدى :

١ — إنها من الإسرائيليات .

٢ — كيف يأخذ العزير من الشيخ كهيئة الجمرة العظيمة فى فمه ويرجع وهو من أعلم الناس بالتوراة وقال يابنى إسرائيل قد جئتكم بالتوراة ، فهل هو نبى ؟ أرسل بالتوراة من جديد إن كان الأمر كذلك يكون إرساله عبثاً .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٣ صـ ٢٠ : ٢١

ومع احترامنا للسدى ولأبى الفداء فنقول يحتمل أن يكون العزير هو الذى مر على القرية مع استبعادنا لأرميا ولقد أقمت الأدلة على ذلك عند الحديث عن الخضر عليه السلام .

القرية التى مر عليها :

لقد كانت القرية محل خلاف بين العلماء بيد أن جمهور العلماء على أنها بيت المقدس ومرور العزير عليها كان بعد تخريبها من بختنصر وجنوده ومن الذين ذهبوا إلى ذلك وهب بن منبـــه وقتادة والضحاك وعكرمة والربيع .

(يقول الطبرى ثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهب بن منبه قال : هى بيت المقدس، حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة قال ذكر لنا أنه بيت المقدس أتى عليه عزير بعد ما ضربه بختنصر حدثت عن الحسين قال سمعت أبامعاذ قال ثنا عبيد بن سليمان قال سمعت الضحاك يقول فى قوله « أوكالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها أنه مر على الأرض المقدسة . حدثنا القـاسم قال ثنا الحسين قال حدثنى حجاج عن ابن جريج عن عكرمة فى قوله « أو كالذى مر على قرية قال القرية بيت المقدس .

حدثت عن عمار قال ثنا ابن أبى جعفر عن أبيه عن الربيع « أو كالذى مر على قرية » قال القرية بيت المقـــدس مر عليها عزير وقد خربها بختنصر) وذهب إلى ذلك ابن جريج(١) .

وذهب بعض العلماء إلى أنها القرية التى كان الله أهلك فيها الذين خرجوا

---

(١) تفسير الطبرى حـ ٣ صـ ٢٠ : ٢١

من ديارهم وهم ألوف حذر الموت . ولقــد قال الطبرى (وقال آخرون بل هى القرية التى كان الله أهلك فيها الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا[1]) .

الآيات الواردة فى شأنه

(أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وأنظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير .

مناسبة الآية بما قبلها :

لقد تحدثت الآية السابقة عن محاجه النمرود بن كنعان الذى أتى من زنا وملك الأرض وتجبر وبالغ فى احتجاجه حتى رد على إبراهيم عليه السلام حين قال له إبراهيم «ربى الذى يحيى ويميت» قال «أنا أحيى وأميت» بالقتل والعفو فدعا برجلين فقتل أحدهما وترك الآخر فلما عرف إبراهيم غباءه قال له «إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر» .

ثم شرع فى هذه الآيات ببيان قدرة الله وبعثه الخلائق بذكر قصة أحيى صاحبها بعد موته .

---

(١) المرجع السابق ص ٢١

المباحث العربية

« أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها » « أو » حرف عطف عطفت مابعدها على قوله « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه » وإن اختلف لفظاهما لتشابه معنيهما والمعنى هل رأيت يامحمد أو أيها المخاطب كالذى حاج ابراهيم فى ربه ثم عطف عليه بقوله أو رأيت كالذى مر على قرية . ولقد اختلف فى الكاف فى « كالذى » وفى الكاف وجهان:

١ — يجوز أن تكون اسماً بمعنى مثل فتكون معمولا لفعل محذوف والتقدير أو رأيت كالذى .

٢ — يجوز أن تكون الكاف زائدة للتوكيد ويكون اسم الموصول معطوفا على اسم الموصول السابق « الذى حاج إبراهيم » ولايكون هناك عامل فى اسم الموصول . « على قرية » جار ومجرور متعلق بالفعل قبله « وهى خاوية » جملة فى محل جر صفة لقرية « خاوية » اسم الفاعل هو من الفعل الثلاثى خوى والمعنى خلت من سكانها « على عروشها » العرش فى الأصل الشىء المسقف والمعنى هنا سقطت أسقفها على الأرض وليس لها عروش تحمل الأسقف والجار والمجرور متعلق باسم الفاعل « خاوية » .

قال « أنى يحيى هذه الله بعد موتها » ويجوز فى « أنى » معنيان :—

١ — يجوز أن تكون بمعنى متى فتكون ظرف زمان عاملها الفعل بعدها لأن لها الصدارة .

٢ — ويجوز أن تكون بمعنى كيف فتكون حالا من اسم الإشارة هذه .

ولقد اختلف العلماء فى سبب قول العزير « أنى يحيى هذه الله بعد موتها » فقال ذلك استعظاماً لقدرته تعالى لاشكا فيها . وعبارة الخازن قال ذلك

تعجباً من قدرة الله على إحيائها وعبارة أبي السعود قال ذلك تلهفاً عليها وتشوقاً إلى عمارتها مع استشعار اليأس منها . اه

وعبارة البيضاوى قال ذلك اعترافا بالجهل عن معرفة طريق الإحياء واستعظاما لقدرة المحيي اه .

وسبب قول العزير ماذكر وتوجهه على تلك القرية أنه كان من أهلها من جملة من سباهم بختنصر فلما خلص من السبي وجاء ورآها على تلك الحالة وكان راكباً على حمار دخلها وطاف بها فلم ير أحداً فيها وكان إذ ذاك غالب أشجارها حاملا فأكل من الفاكهة واعتصر من العنب فشرب منه وجعل فضل الفاكهة فى سلة وفضل العصير فى زق أو ركوة ثم ربط حماره بحبل قوى وثيق وألقى الله تعالى عليه النوم فلما نام نزع الله منه الروح وأمات حماره وبقى عصيره وتينه عنده وذلك ضحى ومنع لحمه من السباع والطير فلما مضى من وقت موته سبعون سنة سلط الله ملكا من ملوك فارس فسار بجنوده حتى أتى بيت المقدس فعمروه وصار أحسن مما كان ورد الله تعالى من بقى من بنى إسرائيل إلى بيت المقدس ونواحيه فعمروها ثلاثين سنة وكثروا كأحسن ما كانوا وأعمى الله العيون عن العزير هذه المدة فلم يره أحد فلما مضت المائة أحيا الله تعالى فيه عينيه وسائر جسده وهو ينظر ثم نظر إلى حماره وعظامه تلوح بيض متفرقة) (١) .

« فأماته الله مائة عام ثم بعثه » الفاء للسببية وذهب بعض العلماء إلى أن للموت أنواعاً متعددة : (فالأول ما هو بازاء القوى النامية الموجودة فى الإنسان والحيوان والنبات نحو قوله « يحيي الأرض بعد موتها » والثانى : زوال القوة الحاسة كقوله « أئذا ما مت لسوف أخرج حيا » والثالث : زوال القوة العاقلة وهى الجهالة نحو « أو من كان ميتاً فأحييناه »

---

(١) الفتوحات الإلهية حـ١ ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

والرابع : الحزن المكدر للحياة وإياه قصد بقوله « ويأتيه الموت من كل جانب وماهو بميت »[١] والخامس: المنام فقيل: النوم موت خفيف والموت نوم ثقيل وعلى هذا النحو سماها الله تعالى توفية فقال « وهو الذى يتوفاكم بالليل »[٢] .

والذى أراه :

أن الموت الذى هو نهاية الحياة هو: فساد بنية الجسد وتوقف الأعضاء عن وظائفها وهو الذى جرى على العزير ، أى أماته الله مائة سنة ثم أحياه بعد الموت « قال كم لبثت» هذه الجملة مستأنفة مبنية على سؤال كأنه قيل فماذا قال له بعد بعثه فقيل كم لبثت و «كم» منصوبة على الظرفية ومميزها محذوف تقديره كم وقتاً أو يوماً ، والعامل فيها النصب الفعل لبثت ، وجملة كم لبثت » فى محل نصب مقول القول، والقائل ملك من الملائكة بوحى من الله « قال لبثت يوماً أو بعض يوم » أى مكثت يوماً أو بعض يوم لأنه نام فى أول النهار فقبض وأحيي عند الغروب وأو للشك وقيل للاضراب بمعنى بل .

« قال بل لبثت مائة عام » بل للاضراب الإبطالى وبل عطفت مابعدها على جملة محذوفة والتقدير مالبثت يوماً أو بعض يوم بل لبثت مائة عام ، «فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه» الفاء واقعة فى جواب شرط محذوف إذا عرفت ذلك فانظر «لم يتسنه» أى لم يتغير مشتق من السنه أى لم تمر على السنون والمعنى على التشبيه أى كأنه لم تمر عليه المائة سنة لبقائه على حاله

---

(١) ويستدل على هذا المعنى بهذين البيتين لعدى بن الرعلاء:

ليس من مات فاستراح بميت   إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيبا   كاسفا باله قليل الرجاء

(٢) قطوف من السنه ص ٣٦:٣٥

وعدم تغيره والهاء قيل أصل هذا مبنى على أن لام السنه هاء وعلى هذا فالفعل مجزوم بسكونها وعلى هذا فهى ثابتة وصلا ووقفاً وقيل للسكت مبنى على أن لام السنه واو وعلى هذا القول يكون الفعل مجزوما بحذف حرف العلة وتثبت الهاء فى الوقف لا فى الوصل ويجوز أن يكون هذا الفعل — لم يتسنه — مشتقاً وأن التسن الذى هو التغير وأصله لم يتسنن مأخوذ من الحمأ المسنون فأبدلت النون الثالثة حرف علة وعلى هذا يجب أن تكون الهاء للسكت لا غير »(١) .

« وانظر إلى حمارك » كيف تفرقت عظامه وتقطعت أوصاله وأمره بذلك ليعلم بالمعاينة أنه مات .

« ولنجعلك آية للناس » هذه الجملة معطوفة على محذوف قال أبو السعود عطف على مقدر متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف مقرر لمضمون ما سبق أى فعلنا ما فعلنا من إحيائك بعد ما ذكر لتعاين ما استبعدته من الأحياء بعد دهر طويل ولنجعلك آية للناس .

« آية لناس » أى علامة للناس على البعث .

« وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً » كيف ننشزها » بالزاى أى نرفع بعضها إلى بعض ونردها إلى أماكنها من الجسد فنركبها تركيباً لإبقائها وقرىء ننشرها بالراء من أنشر الله الموتى أى أحياها « ثم نكسوها » أى نسترها باللحم كما يستر الجسد باللباس .

« فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير » أى فلما ظهر أمر البعث بالنظر إلى حماره قال أعلم أن الله كل شىء قدير ومن جملته البعث.

---

(١) الفتوحات الإلهية ج١ ص ٢١٣ باختصار.

معنى الآية

أو رأيت أيها المخاطب مثل الذى مر على قرية هلك أهلها وسقطت أسقفها بعد أن طاحت قواعدها على أرضها فدعاه ذلك إلى أن يقول ، أنى يحيى هذه الله بعد موتها ، أى كيف تدب الحياة فى هذا الموات ولقد أراه الله كيفية البعث فى عالم الواقع دون الحديث النظرى .

« فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، قال له كم وقتا مكثت قال مكثت يوماً أو بعض يوم قال بل مكثت مائة سنة فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتغير وانظر إلى حمارك ولنجعلك دليلا عمليا على البعث وانظر إلى العظام كيف نركب العظام بعضها إلى بعض ثم نحييها ثم نكسوها لحماً فلما ظهر ووضح له بعينه قال أعلم علماً يقيناً بأن الله على كل شىء قدير .

العلـــم الخامس

لقمان عليه السلام

اسمــــه :

اختلف العلماء في اسمه إلى أقوال ثلاثة : ـــ

القول الأول :

إنه عربي واسمه مشتق ويجوز أن يكون من (لقمت الطعام ألقمته وتلقمته)(١) وعلى ضوء ذلك يكون ممنوعا من الصرف للعلمية وزيادة النون كعثمان .

روى الحافظ ابن كثير قولا (وقال عبدالله ابن وهب أخبرني عبدالله ابن عياش القتباني عن عمر مولى غفرة قال وقف رجل على لقمان الحكيم فقال أنت عبد بني الحسحاس ؟ قال نعم ، قال أنت راعي الغنم ؟ قال : نعم قال أنت الأسود ؟ قال : أما سوادي فظاهر فما الذي يعجبك من أمري ؟ قال : وطء الناس بساطك وغشيهم بابك ورضاهم بقولك ، قال يا ابن أخي إن صغيت إلى ما أقول لك كنت كذلك قال لقمان : غضي بصري ، وكفي لساني ، وعفة طعمتي ، وحفظي فرجي ، وقولي بصدقي . ووفائي بعهدي ، وتكرمتي ضيفي ، وحفظي جاري ، وتركي مالا يعنيني ، فذاك الذي صيرني إلى ما ترى)(٢).

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص ٦٨٤

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٤٣ : ٤٤٤

القول الثانى:

هو أعجمى فيكون ممنوعاً من الصرف للعلمية والعجمية والعجمة ، ذهب ابن كثير إلى أنه لقمان بن عنقاء بن سدون وذهب إلى هذا السهيلى وذهب أبو السعود إلى أنه لقمان بن باعوراء من أولاد آزر بن أخت أيوب عليه السلام .

وساق صاحب الفتوحات الإلهية أقوالا فقال : قيل هو لقمان بن ناغور بن ناخور بن تارخ وهو آزر وقيل كان ابن أخت أيوب وقيل كان ابن خالته .

وقال الشوكانى : هو لقمان بن باعورا ابن ناخور بن تارخ وهو آزر أبو إبراهيم عليه السلام وقال أيضاً قيل هو لقمان بن عنقا بن مرون .

وكما اختلف فى اسمه اختلف فى جنسيته فقيل كان حبشياً (عن ابن عباس قال كان لقمان عبداً حبشياً)(١) .

وذهب إلى هذا مجاهد وخالد الربعى ، وقيل كان نوبياً وذهب إلى هذا سعيد بن المسيب (عن عبد الرحمن بن حرملة قال جاء أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله فقال له سعيد لا تحزن من أجل أنك أسود فإنه كان من خير الناس ثلاثة من السودان : بلال ومهجع مولى عمر بن الخطاب ولقمان الحكيم كان أسود نوبياً ذا مشافر)(٢) وفى رواية أخرى عن سعيد بن المسيب (كان لقمان الحكيم أسود من سودان مصر)(٣) .

وقيل كان فى بنى إسرائيل وكان فى زمن داود عليه السلام .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢١ ص ٤٣

(٢) المرجع السابق . (٣) المرجع السابق .

سحنته وعمله

(عن مجاهد قال : كان لقمان الحكيم عبداً حبشياً غليظ الشفتين مصفح القدمين قاضياً على بنى إسرائيل)(١).

وقيل كان يعمل نجاراً (عن خالد الربعى قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً)(٢) .

وروى أنه كان راعياً للغنم كما سبق فى أثر عبد الله بن وهب وقيل عاش ألف سنة وأخذ العلم عن أيوب وكان يفتى قبل مبعث داود عليه السلام فلما بعث قطع الفتوى فقيل له لماذا قطعت الفتوى ؟ فقال ألا اكتفى إذ كفيت أى ألا أستريح بترك الفتيا إذ كفيتها بقيام داود بها .

ولقد اختلف فى نبوته فجمهور العلماء على أنه عبد صالح آتاه الله الحكمة وليس نبياً ولم يقل بنبوته إلا عكرمة(٣).

اسم ابنه :

(اسم ابنه ثاران وذهب إلى هذا ابن جرير والسهيلى والقتبى وقال الكلبى اسمه مشكم : وقال النقاش أنعم وقيل ماثان(٤) وقيل أشكم).

وقال الإمام ابن حجر (قال السهيلى اسم ابنه باران بموحدة وراء مهملة وقيل فيه بالدال فى أوله وقيل اسمه أنعم وقيل شكور وقيل بابل)(٥).

---

(١) المرجع السابق
(٢) المرجع السابق
(٣) تفسير الطبرى حـ٢٢ صـ٤٤
(٤) راجع فتح القدير حـ٤ صـ٢٣٧
(٥) فتح البارى حـ٦ صـ٤٦٦

حديث القرآن عن لقمان

قال تعالى : « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد . وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلىّ ثم إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يابنى إنها إن تك مثقال من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير . يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك إن ذلك من عزم الأمور . ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » .

مناسبة الآيات بما قبلها :

قال الله تعالى قبل حديثه عن لقمان (هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين) فهذه الآية تدحض الشرك بأدلة آفاقية كونية فهذا الخلق يشهد لخالقه بالتوحيد . بيد أن غير الله لم يخلق شيئا ثم أتت آيات لقمان لتسوق آيات على بطلان الشرك أيضاً .

إيتاء الله الحكمة للقمان : —

(ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد)

المباحث العربية

« ولقد » الواو للإستئناف واللام لام القسم وقد حرف تحقيق .

« آتينا » أعطينا « الحكمة » فسر جمهور المفسرين « الحكمة » على أنها الفقه فى الدين والعقل والإصابة فى القول . وقال أبو السعود (والحكمة فى عرف العلماء استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها)(١)

« أن اشكر لله » « أن » يجوز أن تكون زائدة ويجوز أن تكون مفسرة لأن فى إيتاء الحكمة معنى القول .

« ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه » الواو للإستئناف والجملة بعدها مستأنفة مقرره لما قبلها بوجوب امتثال الأمر بالشكر وعبر بالمضارع ليفيد التجدد والحدوث ومعنى الشكر هو الثناء باللسان وبالجنان على نعمة حلت بالمنعم عليه . والفرق بينه وبين الحمد أن الحمد ثناء على من هو أهل للثناء . والفرق بين الشكر وبين المدح أن الشكر يكون للعاقل والمدح يكون للعاقل وغير العاقل .

ومعنى « ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه » ومن يشكر الله فإن ثواب شكره راجع إلى نفسه لا إلى غيره . وهنا أسلوب قصر حيث قصر ثواب الشكر على نفس الشاكر لا يتعداه إلى غيره .

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ٤ ص ٢٨٩

« ومن كفر فإن الله غنى حميد » أى ومن جحد النعمة وأنكر شكرها « فإن الله غنى » عن خلقه « حميد » محمود على صنعه ، أى هو أهل لأن يحمد .

معنى الآية

يبدو نسق الآيات فى هذه السورة يعالج قضية الشكر لله وحده وهذا ضرب من الدعوة إلى التوحيد . فلقمان اختاره القرآن ليعرض بلسانه قضية التوحيد فالله منحه الحكمة وأمره بالشكر فالذى يشكر الله إنما يدخر رصيداً ينفعه ولا يتعداه هذا الرصيد إلى غيره ومن جحد النعم فإن الله غنى عنه وهو قمن بالحمد والثناء .

مواعظ لقمان لابنه

أولا : نهيه عن الشرك :

(وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) .

المباحث العربية

« وإذ قال لقمان » الواو عاطفة عطفت هذه الجملة على جملة « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله » والمعنى آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه واعظاً لغيره .

« وإذ » عاملها محذوف والتقدير اذكر و (قال الزجاج : إذ فى موضع نصب بآتينا .

المعنى ولقد آتينا لقمان الحكمة إذ قال . قال النحاس : وأحسبه غلطا لأن فى الكلام واوا وهى تمنع من ذلك)(١)

« لابنه » جار ومجرور متعلق بالفعل قال .

« وهو يعظه » الواو واو الحال والجملة حالية والوعظ (زجر مقترن بتخويف وقال الخليل : هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب)(٢)

« يابنى » تصغير والكلمة أصلها بنو وبعد التصغير تصير بنيو على وزن فعيل سبقت الياء الواو فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فى الياء فصارت بنى.

« لاتشرك بالله » هذا نهى عن اتخاذ شريك مع الله تعالى

« إن الشرك لظلم عظيم » هذه الجملة مستأنفة تعليلية للنهى السابق وهى مؤكدة بمؤكدات ثلاثة : إن ، واسمية الجملة ، واللام . وهذه الجملة من كلام لقمان فلقد ورد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال :(لما نزلت هذه الآية الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا أينا لم يلبس إيمانه بظلم فقال رسول الله ﷺ إنه ليس بذاك ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه : إن الشرك لظلم عظيم)(٣)

---

(١) فتح القدير جـ٤ صـ٢٣٧
(٢) المفردات فى غريب القرآن صـ٢٨٧
(٣) متن البخارى بحاشية السندى جـ٣ صـ١٧٣

دعوة الأبناء إلى البر بالآباء :

« ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » .

سبب نزول هذه الآيات :

روى المفسرون أن هذه الآيات نزلت فى سعد بن أبى وقاص لما أسلم وهددته أمه بالإضراب عن الطعام حتى يعود إلى دين آبائه وأجداده فأبى. يقول الطبرى (وذكر أن هذه الآية نزلت فى شأن سعد بن أبى وقاص وأمه ذكر الرواية الواردة فى ذلك . حدثنا هناد بن السرى قال ثنا أبو الأحوص عن سماك بن حرب عن مصعب بن سعد قال: حلفت أم سعد ألا تأكل ولا تشرب حتى يتحول سعد عن دينه قال فأبى عليها فلم تزل كذلك حتى غشى عليها قال فأتاها بنوها فسقوها فلما أفاقت دعت الله عليه فنزلت هذه الآية ووصينا الإنسان بوالديه إلى قوله ... فى الدنيا معروفاً)(١) .

وقيل إنها نزلت فى سعد بن مالك (قال سعد بن مالك : نزلت فى « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً » قال لما أسلمت حلفت أمى لا تأكل طعاماً ولا تشرب شراباً قال فناشدتها أول يوم فأبت وصبرت فلما كان اليوم الثانى ناشدتها فأبت فلما كان اليوم الثالث ناشدتها فأبت فقلت والله لو كانت لك مائة

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢١ ص ٤٥

نفس لخرجت قبل أن أدع دينى هذا فلما رأت ذلك وعرفت أنى الست فاعلا أكلت)(١) .

المباحث العربية

هذا كلام مستأنف معترض به على نهج الاستطراد أثناء وعظ لقمان لولده وهو مؤكد للنهى عن الشرك .

« ووصينا الإنسان بوالديه » « وصى » والاسم منه الوصية وهى (التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ من قولهم أرض واصية)(٢) .

« الإنسان » أل الجنس أى جنس الإنسان .

« بوالديه » أى أبوه وأمه .

« حملته أمه » إلى قوله فى عامين معترض بين المفسر بفتح السين وتشديدها وهو الإنسان بوالديه وبين المفسر بكسر السين وتشديدها وهو أن أشكر لى ولوالديك .

« وهناً على وهن » يجوز أن يكون حالا من أمه والمعنى أى ذات وهن . ويجوز أن يكون مصدراً مؤكداً لفعل هو الحال أى تهن وهناً .

« على وهن » صفة للمصدر أى كائنا على وهن ، والمعنى ضعفاً على ضعف فالحمل ضعف وآلامه كثيرة فالمرأة لا تستريح فى طعام ولا شراب ويعتريها الدوار وتصاب بالغثيان وتخور قوتها وتقل حركتها وعند الوضع

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢١ ص ٤٥

(٢) المفردات فى غريب القرآن ص ٨٢٤

ترى الشدائد فمنذ حمله إلى وضعه تنتقل من ضعف إلى ضعيف ومن شدة إلى شدة .

« وفصاله فى عامين » أى وفطامه من الرضاع فى انقضاء عامين وترك ذكر انقضاءه لدلالة الكلام عليه . كما قال الله تعالى (واسأل القرية التى كنا فيها)(١) فالمراد أهل القرية .

« أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير » يجوز فى أن وجهان الأول: أنها مفسرة والثانى أنها ومادخلت عليها مصدر فى محل نصب بوصينا والمعنى ووصينا الإنسان بوالديه الشكر لى ولوالديك . (قال سفيان بن عيينه فى هذه الآية من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى ومن دعا للوالدين فى أدبار الصلوات فقد شكر للوالدين)(٢) .

« إلى المصير » هذا تعليل لوجود الامتثال والمعنى إلى الرجوع لا إلى غيرى فأثيبك على شكرك وأعاقبك على كفرك .

« وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم » .

« وإن جاهداك » وإن أفرغا ما فى وسعك من مقاومتهما .

« على أن تشرك بى ما ليس لك به علم » أى لا تشرك بى ما ليس بإله فيكون لك علم بالألوهية . فيكون قد عبر بنفى العلم عن نفى المعلوم أو تفسير هذه الآية بما يأتى :

« على أن تشرك بى ماليس لك به علم » أى جاهداك على أن تتخذ معى

---

(١) يوسف آية ٨٢

(٢) الفتوحات الإلهية جـ ٣ ص ٥٠٤

شريكا لك به علم كذلك فلا تتخذ هذا الشريك ما لك به علم لأنه إذا انتفى ما لاعلم به فمن باب أولى ما له به علم .

« فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا » الفاء واقعة فى جواب الشرط لأن الجملة فعلها طلبى .

« معروفاً » المعروف ماعرف حسنه من شرائع الله ومناهجه . ويجوز فى إعرابه وجهان :

الأولى : أنه صفة لمصدر محذوف والتقدير وصاحبهما صحاباً معروفاً .

الثانى : أنه منصوب على نزع الخافض والتقدير وصاحبهما فى الدنيا بمعروف وهو مايقتضيه الشرع وتقتضيه المروءة .

« واتبع سبيل من أناب إلى » أى اتبع طريق الذين رجعوا إلى بالتوحيد والإخلاص فى الطاعة .

« ثم إلى مرجعكم » عبر بثم التى تفيد التراخى لوجود فسحة ووقت فى أعمار الخلق . وهذا الأسلوب أسلوب قصر حيث تقدم الخبر على المبتدأ والمعنى ثم إلى لا إلى غيرى مرجعكم .

« فأنبئكم بما كنتم تعملون » الفاء للترتيب « فأنبئكم » فأخبركم .

« بما كنتم تعملون » بالذى كنتم تعملونه ، وعبر بالمضارع فى قوله « تعملون » لاستحضار الصورة فى الذهن فكأن الذى عملوه فى الدنيا يأتى يوم القيامة كأنهم يباشرونه .

لفت انتباه الإبن إلى علم الله تعالى :

« يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت الله بها إن الله لطيف خبير » .

« إنها إن تك مثقال حبة من خردل » « الهاء » تعود على السيئة وهى لم يسبق عنها حديث ولكن يفهم من السياق أنه كان بين الإبن ووالده حديث عنها كما ذكر الشوكانى قال (روى أن ابن لقمان قال لأبيه يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يرانى أحد هل يعلمها الله قال « إنها » أى الخطيئة)(١) .

« إن تك مثقال حبة من خردل » هذه الجملة شرطية مفسرة للضمير السابق ، وتك فعل الشرط مجزوم وعلامة جزمه السكون على النون المحذوفة تخفيفاً .

« مثقال » قرىء بالنصب على أنه خبر تك واسم تك ضمير مستتر جوازاً تقديره هى يعود على السيئة وقرىء بالرفع أيضاً على أنها فاعل لتك وتك تامة وأنث الفعل لإضافة مثقال إلى مؤنث وهو حبة أو أن المراد الحبه . وذكر الخردلة لأنها أصغر الحبوب ولايدرك ثقلها بالحس ولاترجح ميزانا.

« فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض » الفاء للتفريع وإسمها ضمير مستتر جوازاً تقديره هى « فى صخرة » خبر تكن وما بعدها الجار والمجرور معطوف عليه وقرىء فتكن بكسر الكاف من وكن الطائر يكن إذا استقر فى وكنته وهى مقره ليلا .

« يأت بها الله » هذه الجملة جواب الشرط « إن تك » والمعنى يحضرها الله ويثيب أو يجازى عليها .

« إن الله لطيف خبير » جملة مستأنفة معللة لقوله « يأت بها الله » وهى مؤكدة بمؤكدات متعددة إن وإسمية الجملة واللام وصيغة المبالغة

(١) فتح القدير ج٤ ص ٢٣٨

والمعنى أن الله يعلم دقائق الأمور فيصل علمه إليها، والفرق بين اللطيف والخبير والعليم إن اللطيف هو العالم بخفايا الأمور ودقائقها كما فى هذه الآية وقد يكون بمعنى البر بعباده المحسن إلى خلقه بإيصال المنافع إليهم برفق . والخبير هو العالم ببواطن الأمور . والعليم هو الذى لا يخفى عليه شىء ولا خافية مع ملاحظة صيغة المبالغة فيها .

أمر الإبن بإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر :

(يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) .

« يابنى أقم الصلاة » أى أعطها حقها من أركانها والإطمئنان فيها وأدها فى وقتها وهذا تكميل لنفسه .

« وأمر بالمعروف وانه عن المنكر » ومر الغير بالمعروف وهو ماعرف حسنه من الشرع والعقل وانه الناس وازجرهم عن المنكر وهو ما مجه الشرع وأنف منه العقل وفى هذه الجملة طباق بين « وأمر » وبين « وانه » وقوله « بالمعروف » وبين عن المنكر » .

« واصبر على ما أصابك » الصبر هو حبس النفس عن الجزع والمراد به الصبر على الشدائد والمحن لاسيما فيما أمرت به .

« إن ذلك من عزم الأمور » هذه الجملة لا محل لها من الإعراب مستأنفة معللة الأمر فى قوله « أقم » وقوله « وأمر » وقوله « وانه » وقوله «واصبر» وعبر باسم الإشارة « ذلك » للإشعار ببعد منزلة هذه الأمور فى الفضل ولا يخفى ما فى هذه الجملة من التوكيد وفى معنى هذه الجملة يقول أبو السعود (« من عزم الأمور » أى مما عزمه الله تعالى وقطعه على عباده من الأمور لمزيد مزيتها و « عزم » مصدر أطلق على المفعول وقد جوز أن يكون بمعنى

الفاصل من قوله تعالى « فإذا عزم الأمر »(١) أى بعد والجملة تعليل لوجوب الامتثال بما سبق من الأمر والنهى وإيذان بأن ما بعدها ليس بمثابته(٢) .

« ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » .

المباحث العربية

« ولا تصعر خدك للناس » أى لا تمله عن النظر إلى الناس تهاوناً بهم وكبراً عليهم . يقول صاحب القاموس « الصعر » محركة والتصعر ميل فى الوجه أو فى أحد الشقين أو داء فى البعير يلوى عنقه منه صعر كفرح فهو أصعر وصعر خده تصعيراً وصاعره وأصعره أماله عن النظر إلى الناس تهاوناً من كبر »(٣) .

« خدك » الخد ما جاوز مؤخرة العين إلى منتهى الشدق أو هو ما يكتنف الأنف من جهة اليمين أو من جهة الشمال .

« ولا تمش فى الأرض مرحا » هو شدة الفرح والتوسع فيه والمراد به الكبر والمعنى ولا تمش فى الأرض متكبراً فيكون المصدر فى موضع الحال .

« إن الله لا يحب كل مختال فخور » هذا استئناف معلل للنهى السابق .

---

(١) سورة محمد آية ٢١
(٢) تفسير أبى السعود ج ٤ ص ٢٩٠
(٣) القاموس المحيط ج ٢ ص ٧١

ومعنى «مختال»: المتبختر فى مشيه. «فخور» المتمدح بالخصال. ولقد أخر الكلمة لرعاية الفواصل.

«واقصد فى مشيك» القصد فى المشى التوسط بين الدبيب وهو ضعف المشى والإسراع.

«واغضض من صوتك» انقص من صوتك واخفضه ولا تتكلف رفعه.

و (من) يجوز أن تكون زائدة ويجوز أن تكون تبعيضية.

«إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» هذه الجملة مستأنفة تعليلية للأمر بالغض.

«إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» أى أوحشها وأقبحها «لصوت الحمير» فصوت الحمير أوله زفير وآخره شهيق وأفرد الصوت مع أنه مضاف إلى الجمع لأنه مصدر وهو يدل على الكثرة.

معنى الآيات الواردة فى سورة لقمان

ساق الله قصة لقمان لأنه يعرض قضية التوحيد وما يتعلق بها. فهو يبدأ بالنهى عن الشرك ويعلل هذا النهى بأن الشرك ظلم عظيم، ويؤكد هذه الحقيقة مرتين مرة بتقديم النهى واستئناف علته ومرة بإن واللام وإسمية الجملة وهذه الدعوة التى يدعو لها لقمان ولده دعا رسول الله محمد ﷺ قومه إليها فصدفوا عنها وجادلوه مخافة ضياع سلطانهم فالقرآن يعرض قصة لقمان ووصيته ليعلن أن هذه حقيقة قديمة تواصى بها كل من أتاه الله الحكمة من الناس.

وفى ظل وصية الأب لولده يعرض الله سبحانه وتعالى للعلاقة بين الآباء والأبناء فى أسلوب عقلى رقيق. ولقد تكررت التوصية بالوالدين كثيراً

وأتت التوصية بالولد نذراً يسيراً كما فى حالة الوأد والقتـــل لأن الفطرة المطبوعة فى الوالدين تتكفل وحدها برعاية الولد من والديه ، فالوالدان مدفوعان إلى رعاية نبتهما لضمان امتداد الحياة وأن الوالدين ليفيضان على ابنهما من كل خير يهبان له من أجسامهما وقوتهما وعمرهما من غير تأنف ولا شكوى بل فى غير انتباه ولا شعور بما يبذلان فالفطرة تدفعهما . أما الوليد فهو مفتقر إلى تكرير الوصية ليلتفت إلى الجيل المضحى المدبر الذاهب والذى سكب عصارة جسده وروحه فى الجيل المتجه إلى المستقبل وأحاطه بالرعاية وكلما عصف المرض بالأبناء تزلزلت أفئدة الآباء على أولادهم وما يملك الأبناء أن يعوضوا الآباء بعض ما بذلوه ولو وقفوا أعمارهم عليها وهذه الصورة الموحية «حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين» ، وبعد هذه الصورة المؤثرة يأمر الله بالشكر له ثم الشكر للوالدين . «وأن اشكر لى ولوالديك» ويربط جزاء الشكر بالآخرة «إلى المصير» حيث يجازى الشاكرين ولما قدم الأمر بالشكر لله على الشكر للوالدين تكون علاقة الآباء بالأبناء آتية فى الترتيب بعد وشيجة العقيدة ، فإن كان الوالدان كافرين ودعوا الإبن إلى الشرك بالله فإلى هنا ويسقط واجب الطاعة وتعلو وشيجة العقيـدة على كل الوشائج بيد أنه يعايشهمـا ويلازمهما بالمعروف كما فعل الصالحون التائبون إلى الله .

« فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا . واتبع سبيل من أناب إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » .

وبعد هذا الاستطراد المعترض فى سياق وصية لقمان تأتى الفقرة لتقرر ما فيها من ريب وهى إحاطة علم الله بكل ذرة فى الكون فلا تعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا تندعنه شاردة ولا تغيب عنه واردة إن تكن مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يحضرها الله ويجازى عليها إن الله يعلم دقائق الأشياء خبير بها .

ويمضى السياق فى حكاية وعظ لقمان لولده فإذا هو يتابع معه خطوات العقيدة بعد استقرارها فى ضمير ولده بعد دعوته إلى الإيمان بالله واليقين بالآخرة والثقة بعدالة الجزاء الذى لا يفلت مثقال حبة من خردل دون جزاء .

فالوصية التالية هى التوجه إلى الله بالصلاة والمحافظة عليها والتوجه إلى الناس بالدعوة إلى الله والصبر على تكاليف الدعوة ومتاعبها والصبر على كل معصية .

« يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » .

ويستطرد لقمان فى وصيته التى يحكيها القرآن فى إرشاد ابنه إلى الأدب مع الناس وعدم إمالة خده للتعالى والاستكبار . ونهاه عن المشى فى الأرض فى تخايل ونفخه وقلة مبالاته بالناس وهى حركة كريهة يمقتها الله ويبغضها الناس فالذى يصنع ذلك يعبر عن شعور مريض بالذات يتنفس فى مشيه الخيلاء فالله لا يحب كل مختال فخور .

ثم يبين له كيفية المشى وهى مشية معتدلة قاصدة بين الدبيب والإسراع ثم أمره بخفض صوته فى معظم أحايينه فالذى يعلو صوته فى غير موطن العلو فصوته كصوت الحمير فى نهيقه .

سلوكيات تضمنتها قصة لقمان

أولا : بر الوالدين :

لقد سبق أن قال الله تعالى « أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير » فأتى بشكر الوالدين بعد شكر الله سبحانه وتعالى : فمن طريقهما يوجد الإنسان ومن فيض خيرهما يحيا الإنسان فلولاهما ما كان الإبن . من أجل هذا حث الله على برهما بعد النهى عن الشرك به أو بعد الأمر بعبادته . قال تعالى « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب كل مختال فخور »(١) .

وقال تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسـانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا . ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا »(٢) .

ولقد سأل بعض الصحابة عن أحق الناس بالصحبة فوجههم الرسول ﷺ — إلى الأم وقدمها على الأب وأكدها لكثرة تعبها عليه وشفقتها وخدمتها . والمشاق فى حمله ورضاعته .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال أمك قال ثم من؟قال: أمك قال ثم من ؟ قال : أمك قال : ثم من؟ قال : ثم أبوك »(٣) .

---

(١) النساء آية ٣٦ (٢) الإسراء آية ٢٣ :٢٥

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى حـ ٥ ص ١٠٢

ولقد صرحت الآيات بأساليب متعددة عن ملازمتهما ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، وذلك لأن الوالدين يكونان فى الكبر أحوج إلى الأبناء فى تلك المرحلة من أى مرحلة أخرى لذلك جعل الرسول ﷺ ملازمتهما كالجهاد فى سبيل الله ، عن عبد الله ابن عمرو قال (جاء رجل إلى النبى ﷺ يستأذنه فى الجهاد فقال أحى والداك قال نعم قال ففيهما فجاهد)(١) .

ولقد ساق الإمام مسلم حديثاً تحت عنوان «تقديم الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها ، حدثنا حميد بن هلال بن أبى رافع عن أبى هريرة أنه قال كان جريج يتعبد فى صومعة فجاءت أمه قال حميد فوصف لنا أبو رافع صفة أبى هريرة لصفة رسول الله ﷺ أمه حين دعته كيف وضعت كفها فوق حاجبها ثم رفعت رأسها إليه تدعوه فقالت يا جريج أنا أمك كلمنى فصادفته يصلى فقال اللهم أمى وصلاتى فاختار صلاته فرجعت أمه ثم عادت فى الثانية فقالت يا جريج أنا أمك فكلمنى فقال اللهم أمى وصلاتى فاختار صلاته فقالت اللهم إن هذا جريج وهو ابنى وإنى كلمته فأبى أن يكلمنى اللهم فلا تمته حتى تريه المومسات قال ولو دعت عليه أن يفتن لفتن قال وكان راعى ضأن يأوى إلى ديره قال فخرجت عليه امرأة من القرية فوقع عليها الراعى فحملت فولدت غلاما فقيل لها ما هذا قالت من صاحب هذا الدير قال فجاءوا بفؤوسهم ومساحيهم فنادوه فصادفوه يصلى فلم يكلمهم قال فأخذوا يهدمون ديره فلما رأى ذلك نزل إليهم فقالوا له سل هذه فتبسم ثم مسح رأس الصبى فقال من أبوك قال أبى راعى الضأن فلما سمعوا ذلك منه قالوا نبنى ما هدمنا من ديرك بالذهب والفضة قال لا ولكن أعيدوه ترابا كما كان ثم علاه)(١) .

---

(١) المرجع السابق

(٢) المرجع السابق ص ١٠٥ : ١٠٦

فإن جريجاً رضى الله عنه آثر صلاة النافلة عن تلبيته أمه وكان الصواب أن يجيبها لأن الصلاة نافلة والاستمرار فيها تطوع لا واجب وإجابة الأم وبرها واجب وعقوقها حرام وكان بوسعه أن يخفف الصلاة ويجيبها ثم يعود لصلاته ولكنه خشى أن تدعوه إلى مغادرة صومعته والعود إلى الدنيا ومتعلقاتها وحظوظها فتضعف عزيمته فيما نواه وعاهد عليه .

عن مالك بن ربيعة الساعدى (قال بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال يا رسول الله هل بقى من بر أبوى شىء بعد موتهما ؟ قال نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما)[1] .

ولقد طبق ذلك عبد الله بن عمر رضى الله عنه (عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر أن رجلا من الأعراب لقيه بطريق مكة فسلم عليه عبد الله وحمله على حمار كان يركبه وأعطاه عمامة كانت على رأسه فقال ابن دينار أصلحك الله إنهم الأعراب وإنهم يرضون باليسير فقال عبد الله إن أبا هذا كان وداً لعمر بن الخطاب وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه »)[2] .

---

(١) سنن أبى داود جـ ٤ ص ٣٣٦

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى حـ١٦ صـ١٩

جزاء العقوق :

لما كان العقوق ممجوجاً من قبل الله تعالى ومن قبل الخلق لأنه إسقاط للواجب المفروض على الأبناء تجاه الآباء قال عليه السلام فيما يرويه عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال (الكبائر : الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس)(١) .

ثانياً : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر عليهما :

ولقد حث عليهما رسول الله ﷺ وحذر من التقصير فيهما (عن حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ قال « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر وليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه فتدعوه فلا يستجيب لكم)(٢) .

وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال (سمعت رسول الله ﷺ يقول « من رأى منكراً فليغيره بيده ومن لم يستطع فبلسانه ومن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان ، وفى رواية الشيخين فليغيره(٣) » .

(عن النعمان بن بشير قال قال رسول الله ﷺ « مثل القائم على حدود الله والمدهن(٤) فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فى البحر فأصاب

---

(١) سنن النسائى جـ ٧ ص ٨٨

(٢) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى جـ٦ ص٣٩٠ : ٣٩١

(٣) المرجع السابق

(٤) المدهن بضم الميم وسكون الدال المهملة وكسر الهاء والمراد من يرائى ويضيع الحقوق ولا يغير المنكر وفى رواية البخارى : مثل القائم على حدود الله والواقع فيها

بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها يصعدون فيستقون الماء فيصبون على الذين فى أعلاها فقال الذين فى أعلاها لا ندعكم تصعدون فتؤذوننا فقال الذين فى أسفلها فإنا ننقبها فى أسفلها فنستقى فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا جميعا وإن تركوهم غرقوا جميعاً)(١) .

ثالثاً : التواضع وعدم التكبر :

لا شك أن الذى خلق من ماء مهين ولا يستطيع أن يبلغ طول الجبال ويعجز أن يخرق الأرض يتواضع ولا يستكبر فمن شذ عن هذا واعتراه الكبر ونفخه الكبر عن حجمه فقد ارتدى ثوباً غير ثوبه وكانت عاقبة أمره الردى والعذاب فى جهنم . فإن المتكبر بحق هو الله جل جلاله وعم نواله فمن نازعه عذبه : يقول الرسول ﷺ عن رب العزة :

(العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعنى عذبته)(٢) وهذا الحديث يتضمن حديثا نبوياً وحديثاً قدسيا .

رابعاً : النهى عن التفاخر :

الرجل الذى يلعب برأسه الشيطان فيخلد إلى الماضى فتدور فى خاطره ذكريات أمجاد الأجداد ويظل يتشدق بها فى غدوته وروحته رجل يسلك سلوك أهل الجاهلية وهى نعرة كاذبة خافضة يأباها الله ورسوله «إن الله لا يحب كل مختال فخور» .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٩٥ ، ٣٩٦
(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ج١٦ ص ١٧٣

ويقول عليه السلام (إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية(١) الجاهلية وفخرها بالآباء . مؤمن تقى وفاجر شقى أنتم بنو آدم وآدم من تراب ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان(٢) التى تدفع بأنفها النتن)(٣) .

---

(١) عبيه : بعين مهمله مضمومه بعدها باء موحدة مشددة وبعدها ياء مثناه مفتوحة مشددة : أى فخرها وتكبرها .

(٢) الجعلان : بكسر الجيم وسكون العين جمع جعل: بضم الجيم وسكون العين على وزن صرد : وهو ذويبة تنشأ فى القاذورات

(٣) سنن أبى داود جـ ٤ ص ٣٣١

العلم السادس

مؤمن يس(١)

قبل الحديث عن شخصية هذا الرجل لابد من بيان مدينته والرسل الذين أرسلوا إليها .

أولا : مدينته :

لقد سماها القرآن قرية « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية » .

وسماها مدينة « وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى » ، واسم هذه المدينة أنطاكية بفتح الهمزة وكسرها وسكون النون وكسر الكاف وفتح الياء المخففة . قال ابن جرير (ذكر أنها أنطاكية)(٢) .

وذهب إلى أنها أنطاكية السدى وعكرمة وقتادة وابن عباس وكعب الأحبار ووهب (يقول ابن جرير حدثنا ابن بشار قال حدثنا يحي وعبد الرحمن قال حدثنا سفيان قال ثنى السدى عن عكرمة « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية » قال أنطاكية حدثنا ابن حميد قال ثنا سلمة قال ثنا ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وعن كعب الأحبار وعن وهب ابن منبه قال كان بمدينة أنطاكية)(٣) والمدينة كانت بأرض الروم وذهب السهيلي إلى أنها انتاكية بالتاء بدل الطاء(٤) .

---

(١) وردت تلك الشخصية في سورة يس من الآية ١٣ : ٢٨

(٢) تفسير الطبري ح٢٢ ص ١٠١

(٣) المرجع السابق .

(٤) تفسير القرطبي ح ١٥ ص ١٤

ثانيا : الرسل الذين أرسلوا إلى القرية :

لقد اختلف العلماء فى مرسل هؤلاء الرسل فقال فريق منهم إنهم رسل عيسى عليه السلام وقال فريق آخر إنهم رسل الله من غير واسطه .

الفريق الأول : لقـــد ذهب قتادة إلى أنهم رسل نبى الله عيسى عليه السلام .

[عن قتادة « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث » قال ذكر لنا أن عيسى بن مريم بعث رجلين من الحواريين إلى أنطاكية مدينة بالروم فكذبوهما فأعزهما بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون](١) .

الفريق الثانى : ذهبوا إلى أنهم أرسلوا من قبل الله تعالى يقول ابن جرير « وقال آخرون بل كانوا رسلا أرسلهم الله إليهم — أى إلى أهل القرية »(٢) .

وذهب إلى هذا وهب بن منبه وساق ابن جرير رواية عنه(٣) .

ولقد اختلف فى أسماء الرسل الثلاثة :

ساق ابن جرير رواية عن وهب بن منبه فى أسماء الرسل الثلاثة ويبدو أنه رضى هذا القول «فبعث الله المرسلين وهم صادق ومصدوق وشلوم»(٤)

---

(١) تفسير الطبرى جـ٢٢ ص ١٠ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) انظر المرجع السابق .
(٤) المرجع السابق .

ولم يذكر شيئا سوى هذا وقيل اسمهما يحنا وبواس والثالث شمعون(١) .
وقال القرطبي « فأرسل الله إليهم ثلاثة : وهم صادق وصدوق(٢) وشلوم هو الثالث : هذا قول الطبرى وقال غيره شمعون ويوحنا وحكى النقاش سمعان ويحيى ولم يذكرا صادقا ولا صدوقا »(٣) ولم يذكروا الثالث .

حديث القرآن عن القرية والرسل :

« واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون . إذ أرسلنا إليهم إثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون . قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين . قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم . قال طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون » .

مناسبة الآيات بما قبلها :

لقد تحدث الله فى الآيات السابقة عن إنذار الرسول ﷺ لقريش وقول الله له « وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » أى يستوى عندهم الإنذار وعدمه وهم لا يؤمنون ولقد بين الله لرسوله إنما ينذر المؤمن الذى اتبع الذكر وخاف الرحمن بالغيب ثم أمره أن يضرب لهم مثلا أصحاب القرية من الأمم السابقة إذ جاء تلك القرية رسولان فكذبوهما فقواهما الله برسول ثالث .

---

(١) الفتوحات الإلهية جـ٣ ص ٥٠٦
(٢) فى الطبرى مصدوق .
(٣) القرطبي جـ ١٥ ص ١٤

« واضرب لهم مثلا أصحاب القرية » أى مثل يا محمد لمشركى قومك مثلا أصحاب القرية فالخطاب للرسول ﷺ ومعنى ضرب المثل أنه «يستعمل تارة فى تطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلها كما فى قوله تعالى « ضرب الله مثلا للذين كفروا إمرأة نوح وإمرأة لوط » وأخرى فى ذكر حالة غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى تطبيقها بنظيره لها كما فى قوله تعالى «وضربنا لكم الأمثال » على أحد الوجهين أى بينا لكم أحوالا بديعة هى فى الغرابة كالأمثال فالمعنى على الأول جعل أصحاب القرية مثلا لهؤلاء فى الغلو فى الكفر والإصرار على تكذيب الرسل طبق حالهم بحالهم(١) » .

ومثلا مفعول ثان وأصحاب مفعول أول مؤخر وأخـــر ليتصل به ما هو شرحه وبيانه .

« إذ جاءها المرسلون » بدل مفصل، وهو بدل كل من كل أو بدل اشتمال من أصحاب القرية والمرسلون هم الثلاثة الذين سبق ذكرهم .

« إذا أرسلنا إليهم إثنين فكذبوهما » وهذا بدل كذلك وأسند الإرسال إليه تعالى مع أنهم رسل عيسى فهو المرسل لأن الله هو الآمر بإرسالهم .

« فكذبوهما » الفاء تفيد الترتيب والتعقيب وهذا يدل على أن أصحاب القرية لم يتدبروا ما جاء به هؤلاء الرسل بل كذبوا لأول وهلة « فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون » أى فقوينا الرسالة بثالث « فقالوا إنا إليكم مرسلون » فقال الثلاثة مؤكدين كلامهم إنا إليكم مرسلون « قالوا ما أنتم

---

(١) تفسير أبى السعود حـ ٤ ص ٣٧٨، ٣٧٩

إلا بشر مثلنا » أى قال أصحاب القرية « ما » نافية وأنتم ضمير الرسل وهذا أسلوب حصر بالنفى والاستثناء بإلا أى لا مـــزية لكم علينا تقتضى إختصاصكم بما تدعون فأنتم بشر تأ كلون كما نأ كل وتمشون كما نمشى .

« وما أنزل الرحمن من شىء » ما نافية أى ما أنزل الرحمن شيئا فمن حرف مزيد للتوكيد . « إن أنتم إلا تكذبون » « إن » بمعنى ما النافية وهذا أسلوب حصر بالنفى والاستثناء «قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون» أى قال الرسل ربنا هو الذى يعلم ويشهد على ذلك واقترن خبر إن باللام هنا دون الخبر الأول السابق « إنا إليكم مرسلون » لأن الأول ابتداء إخبار والثانى جواب عن إنكار « إن أنتم إلا تكذبون » .

(وما علينا إلا البلاغ المبين) (ما) نافية وهذا أسلوب حصر حيث حصروا مهمتهم فى التبليغ أى وما علينا إلا التبليغ البين الظاهر . (قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم) (قالوا) أى أصحاب القرية (إنا تطيرنا بكم) التطير هو التفاؤل بالطير ثم استعمل فى كل ما يتشاءم به أى قالوا إنا تشاءمنا بكم ان أصابنا بلاء .

(لئن لم تنتهوا لنرجمنكم)اللام لام القسم والمعنى والله لئن لم تنتهوا عن انذارنا (لنرجمنكم) لنقتلنكم رجما بالحجارة . ولكنهم حنثوا فى يمينهم لأن الله أهلكهم . وقال القرطبى إن الرسل أقاموا ينذرونهم عشر سنين .

(وليمسنكم منا عذاب أليم) (قيل : هو القتل : وقيل هو التعذيب المؤلم وقيل هو التعذيب المؤلم قبل القتل كالسلخ والقطع والصلب)[1] .

(قالوا طائركم معكم) أى قال الرسل لأصحاب القرية شؤمكم معكم أى حظكم من الخير والشر معكم ولازم فى أعناقكم .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ١٦

« أمن ذكرتم » أى إن ذكرتم ووعظتم تطيرتم فجواب الشرط محذوف دل عليه الكلام السابق . يقول القرطبى : (وفيه تسعة أوجه من القراءات قرأ أهل المدينة . «أين ذكرتم» بتخفيف الهمزة الثانية ، وقرأ أهل الكوفة « أإن» بتحقيق الهمزتين والوجه الثالث «أ إن ذكرتم » بهمزتين بينهما ألف أدخلت الألف كراهة للجمع بين الهمزتين. والوجه الرابع «آإن» بهمزة بعدها ألف وبعد الألف همزة مخففة والقراءة الخامسة «آأن» بهمزتين مفتوحتين بينهما ألف» والوجه السادس «أأن» بهمزتين وحكى الفراء أن هذه القراءة قراءة أبى رزين ، قلت: وحكاه الثعلبى عن رزين حبيشه وابن السميفع وقرأ عيسى ابن عمر والحسن البصرى (قالوا طائركم معكم أين ذكرتم) بمعنى حيث وقرأ يزيد بن القمقاع والحسن وطلحة (ذكرتم) بالتخفيف ذكر جميعه النحاس وذكر المهدوى عن طلحة بن مصرف وعيسى الهمذانى (آن ذكرتم) بالمد على أن همزة الاستفهام دخلت على همزة مفتوحة الماجشون(١) (أن ذكرتم) بهمزة واحدة مفتوحة فهذه تسع قراءات)(٢) .

(بل أنتم قوم مسرفون) هذا إضراب عما يقتضيه الشرط والمعنى ليس الأمر كذلك بل أنتم قوم متجاوزون الحدود فى فسادكم وكفركم .

---

(١) هكذا فى النسخة والمعنى وقرأ الماجشون

(٢) تفسير القرطبى حـ١٥ صـ١٦ : ١٧

مؤمن يس

(وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين، اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون، ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون إنى إذا لفى ضلال مبين، إنى آمنت بربكم فاسمعون، قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون، بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين).

اسم الرجل:

حبيب بن مرى وقيل هو حبيب بن إسرائيل النجار وكان رجلا سقيما قد أصيب بالجذام، وكان يعمل الجرير(١) وقيل كان يعمل نجارا وقيل كان يعمل إسكافا، وقيل كان قصارا وقيل كان يعمل بنحت الأصنام وقيل كان راعيا.

الروايات الوارة فى ذلك:

(عن أبى مجلز قال: كان صاحب يس حبيب بن مرى، وعن ابن عباس وعن كعب الأحبار وعن وهب بن منبه اليمانى أنه كان رجلا من أهل أنطاكيه وكان اسمه حبيبا وكان يعمل الجرير.

وعن عمرو بن حزم أنه حدث عن كعب الأحبار قال ذكر له حبيب ابن زيد بن عاصم أخو بنى مازن بن النجار الذى كان مسيلمة الكذاب قطعة باليمامه حين جعل يسأله عن رسول الله ﷺ فجعل يقول أتشهد أن محمداً رسول الله فيقول نعم ثم يقول أتشهد أنى رسول الله فيقول له لا أسمع فيقول مسيلمة أتسمع هذا ولا تسمع هذا فيقول نعم فجعل يقطعه عضواً عضوا

---

(١) الجرير الحبل تشد به الدواب

كلما سأله لم يزده على ذلك حتى مات فى يديه قال كعب حين قيل له اسمه حبيب وكان والله صاحب يس اسمه حبيب)(١) .

ويقول القرطبى (هو حبيب بن مرى وكان نجاراً ، وقيل كان إسكافاً ، وقيل كان قصارا . وقال ابن عباس ومجاهد ومقاتل: هو حبيب بن إسرائيل النجار وكان ينحت الأصنام)(٢) .

عقيدة صاحب يس :

لقد ورد فى بعض الروايات السابقة أنه كان ينحت الأصنام فكان يعبد الأصنام عـلى تلك الرواية وفى رواية قال وهب (وكان حبيب مجذوما ومنزله عند أقصى باب من أبواب المدينة وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم لعلهم يرحمونه ويكشفون ضره فما استجابوا له ، فلما أبصر الرسل دعوه إلى عبادة الله فقال هل من آية ؟ قالوا نعم ندعوا ربنا القادر فيفرج عنك مابك فقال إن هذا لعجب ، أدعو الآلهة سبعين سنة تفرج عنى فلم تستطع فكيف يفرجه ربكم فى غداة واحدة قالوا نعم ربنا على ما يشاء قدير وهذه لاتنفع ولا تضر فآمن ودعوا ربهم فكشف الله مابه كأنه لم يكن به بأس فحينئذ أقبل على التكسب فإذا أمسى تصدق بكسبه فأطعم عياله نصفاً وتصدق بنصف)(٣) .

وفى رواية عن قتادة أنه كان يعبد الله فى غار (عن قتادة قال ذكر

---

(١) تفسير الطبرى جـ٢٢ صـ١٠٢ : ١٠٣

(٢) تفسير القرطبى جـ١٢ صـ١٧ : ١٨

(٣) تفسير القرطبى جـ١٥ صـ١٨

لنا أن اسمه حبيب وكان فى غار يعبد ربه فلما سمع بهم — أى بالرسل — أقبل إليهم وقال ياقوم اتبعوا المرسلين)(١) .

والذى أراه :

أن الرواية الأولى عن وهب هى من الإسرائيليات أما رواية قتادة فهى مقبولة لأنه يحتمل أن الرجل كان يعبد الله على التأمل والفكر وعبد ربه على فطرته ولم تتغير فطرته ووصل إلى أن للكون إلهاً واحداً عن طريق التأمل كقس بن ساعدة وورقة بن نوفل وابن نفيل وأمية بن الصلت . ولقد ساق القرطبى رواية قال (وهو ممن آمن بالنبى ﷺ وبينهما ستمائة سنة كما آمن به تبع — بتشديد الباء — الأكبر وورقة بن نوفل وغيرهما)(٢)

ولقد قال (ابن أبى ليلى : سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين : على بن أبى طالب وهـــو أفضلهم ومؤمن آل فرعون وصاحب يس فهم الصديقون ذكره الزمخشرى مرفوعا عن رسول الله ﷺ)(٣) .

لقاؤه بالرسل :

إن عيسى عليه السلام أرسل رسوليه إلى هذه القرية المذكورة (فلقيا شيخاً يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب يس فدعوه إلى الله وقالا : نحن رسولا عيسى ندعوك إلى عبادة الله ، فطالبهما بالمعجزة فقالا : نحن نشفى المرضى وكان له ابن مجنون وقيـل هو الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ففشا أمرهما وشفيا كثيرا من المرضى فأرسل الملك إليهما — وكان يعبد الأصنام — يستخبرهما فقالا : نحن رسولا عيسى فقال وما آيتـكما ؟

(١) تفسير الطبرى حـ٢٢ صـ١٠٣
(٢) تفسير القرطبى حـ١٥ صـ١٨
(٣) المرجع السابق صـ ٢٠

قالا: نبرىء الأكمه والأبرص ونبرىء المريض بإذن الله وندعوك إلى عبادة الله وحده ، فهم الملك بضربهما وقال وهب حبسهما وجلدهما مائة جلدة فانتهى الخبر إلى عيسى فأرسل ثالثاً قيل شمعون الصفا رأس حديثه إلى الملك فأنس به وأظهر موافقته فى دينه فرضى الملك طريقته ثم قال يوما للملك: بلغنى أنك حبست رجلين دعواك إلى الله فلو سألت ما وراءهما فقال إن الغضب حال بينى وبين سؤالهما . قال : فلو أحضرتهما ، فأمر بذلك فقال لهما شمعون إما برهانكما على ما تدعيان فقالا نبرىء الأكمه والأبرص فجىء بغلام ممسوح العينين موضع عينيه كالجبهة فدعوا ربهما فانشق موضع البصر فأخذا بندقتين طينا فوضعاهما فى خديه فصارتا مقلتين يبصر بهما فعجب الملك وقال : إن هاهنا غلاماً مات منذ سبعة أيام ولم أدفنه حتى يجىء أبوه فهل يحييه ربكما ؟ فدعوا الله علانية ودعاه شمعون سراً فقام الميت حياً فقال للناس إنى مت منذ سبعة أيام فوجدت مشركا فأدخلت فى سبعة أودية من النار فأحذركم ما أنتم فيه فآمنوا بالله ثم فتحت أبواب السماء فرأيت شابا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة شمعون وصاحبيه حتى أحيانى الله وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن عيسى روح الله وكلمته وأن هؤلاء هم رسل الله فقالوا له : وهذا شمعون أيضا معهم فقال نعم وهو أفضلهم فأعلمهم شمعون أنه رسول المسيح إليهم فأثر قوله فى الملك فدعاه إلى الله فآمن الملك فى قوم كثير وكفر آخرون، وحكى القشيرى أن الملك آمن ولم يؤمن قومه وصاح جبريل صيحة مات كل من بقى منهم من الكفار)(١) .

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ صـ ١٥

المباحث العربية

«وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى» يبين تقديم الجار والمجرور على الفاعل على اهتمام الرجل بأمر الرسل خوفا عليهم من القتل فلقد هم القوم بقتلهم فأسرع من أقصى مكان بالمدينة «يسعى» يشتد عدوا لما سمع بتكذيب القوم والهم بقتلهم . وجملة يسعى فى محل رفع صفة لرجل.

«قال ياقوم اتبعوا المرسلين» هذا استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية مجيئه كأنه قيل فماذا قال عند مجيئه فقيل قال ياقوم «اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون» فعل الأمر توكيد للفعل الأمر السابق واسم الموصول بدل من المرسلين«وهم مهتدون» جملة حالية . والمعنى اتبعوا دين المرسلين الذين لايطلبون منكم مالا على تبليغهم بل يهدونكم وتدخلون جنة ربكم فهم قوم هداهم الله وجعلهم رسلا . ولما سأله قومه أأنت على دينهم فقال «ومالى لاأعبدالذى فطرنى وإليه ترجعون» هذا تلطف بهم فى الدعوى والمعنى ولامانع لى أن أعبد الذى خلقنى «وإليه ترجعون» بعد موتكم فيجازيكم على كفركم وهنا أسلوب حصر حيث حصر رجوعهم إلى الله لا إلى غيره وفيه التفات من التكلم إلى الخطاب.

«أأتخذ من دونه» الاستفهام بمعنى النفى والمعنى : لا أتخذ .

(من دونه) غيره (آلهة) أى أصناما.

(إن يردن الرحمن بضر لاتغن عنى شفاعتهم شيئا) أى إن أرادنى الرحمن

بضر لاتدفع عنى آلهتهم هذا الضر ولاتنفعنى شفاعتهم التى زعمتموها (ولا ينقذون) أى يخلصونى من البلاء والعذاب والجملة الشرطية ومابعدها فى محل نصب صفة لآلهة .

« إنى إذاً لفى ضلال مبين » « إنى » إن واسمها والجملة بعدها خبرها «إذاً هى إذا الشرطية والتنوين عوض عن جملة محذوفة والتقدير إنى إذاً عبدت غير الله «لنى ضلال مبين» الضلال هو مجانبة الطريق المستقيم والمعنى لفى ضلال بين ظاهر .

«إنى آمنت بربكم» إنى صدقت بربكم «فاسمعون» عامة القراء على كسر النون وهى نون الوقاية حذفت بعـــدها ياء الإضافة ومفعول اسمعون محذوف والتقدير اسمعوا قولى وهو «اتبعوا المرسلين. اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون» وبعد أن قال لهم ذلك رجموه (قال ابن مسعود وطئوه بأرجلهم حتى خرجت أمعاؤه من دبره وألقى فى بئر وهـــو الرس وهم أصحاب الرس وفى رواية أنهم قتلوا الرسل الثلاثة وقال السدى رموه بالحجارة وهو يقول اللهم أهد قومى حتى قتلوه وقال الكلبى حفروا حفرة وجعلوه فيها وردموا فوقه التراب فمات ردما . وقال الحسن حرقوه حرقا وعلقوه فى سور المدينة وقبره فى سور أنطاكية حكاه الثعلبى. وقال القشيرى والحسن لما أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله إلى السماء فهو فى الجنة لا يموت إلا بفناء السماء وهلاك الجنة فاذا أعاد الله الجنة أدخله. وقيل نشروه بالمنشار حتى خرج من بين رجليه فوالله ماخرجت روحه إلا فى الجنة فدخلها فذلك قوله تعالى «قيل ادخل الجنة » فلما شاهدها «قال ياليت قومى يعلمون» وفى الخازن ولما قتلوه غضب الله له فعجل لهم العقوبة فأمر جبريل بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم فذلك قوله تعالى « وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء »(١).

«قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون » القائل الله سبحانه وتعالى

---

(١) الفتوحات الإلهية ج٣ ص٥٠٩

أو الملائكة «بم غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين» الباء للصلة وما موصولة أو مصدرية ويحذف الألف من «بم» كثير من العلماء. والبعض لا يحذفها

معنى الآيات

واجعل يا محمد لقريش أصحاب القرية مثلا وقت أن جاءها المرسلون. إذ أرسلنا اليهم رسولين فصدف أصحاب القرية عن دعوتهما وأبوا رسالتهما وكذبوهما فقوينا رسالتهما برسول ثالث وقال المرسلون لأهل القرية إنا إليكم مرسلون. فردوا عليهم قائلين ما أنتم إلا بشر مثلنا لا فضل لكم علينا حتى تكونوا رسلا وما أنزل الرحمن من شيء ما أنتم إلا تكذبون. قال الرسل ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا تبليغ تلك الرسالة وقال أصحاب القرية إنا تشاءمنا بكم ولئن لم تنتهوا عن دعوتكم لنا لنقتلنكم رجما وليمسنكم منا عذاب مؤلم فوق قتلكم. قال الرسل شؤمكم ملازم لكم أئن وعظتم تشاءمتم بل أنتم قوم متجاوزون الحدود فى كفركم.

وجاء من أقصى المدينة رجل مؤمن بالرسل يعدو عدواً شديداً مستجيبا لنداء الفطرة السليمة مدافعا عن الرسل يسوق البراهين على صدق هؤلاء الرسل «قال ياقوم اتبعوا المرسلين، اتبعـــوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون» أى اتبعوا هؤلاء الرسل اتبعوا من لا يطلب أجرا ولا يبتغى مغنما فهو صادق وإلا فما الذى يحمله على هذا العناء إن لم يكن ينصاع لأمر الله فما الذى يدفعه إلى حمل هموم هذه الدعوة ومجابهة الناس بغير ما ألفوا «وهم مهتدون» فهم يدعون إلى نهج سليم لا يصادم العقل ولا المنطق. نهج لا خرافة فيه ولا غموض ويدعون إلى الله الواحد..» ومالى لا أعبد الذى فطرنى» ولا مانع لى من عبادة الله الواحد الذى خلقنى «وإليه ترجعون» وإليه تعودون بعد الموت فيجازيكم على كفركم ثم وجه لقومه استنكارا «أأتخذ من دونه آلهة» أأتخذ من غيره أصناما آلهة إن يصبنى الرحمن بضر

فلا تدرأ عنى تلك الأصنام هذا الضر بشفاعتها المزعومة ولا تستطيع إنقاذى . وإن عبدت غير فاطرى إنى إذ لنى خطأ بين وأكون بعيدا عن الطريق المستقيم . إنى صدقت بربكم فاسمعوا قولى فرجموه فمات قالت له الملائكة أوقال الله له «ادخل الجنة» وتتصل حياته الدنيوية بآخرته فانتقل من عالم الفناء إلى عالم البقاء «قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين» ويسدل الستار على حياة مؤمن يس .

أهل الكهف

فتية أصحاب الكهف

جماعة خرجوا عن دين مبتدع قسرهم على اتباعه ملكهم فأبوا وفروا إلى الله الواحد فهو الملجأ والحصن الحصين وآووا إلى الكهف وهو الذى وقعت حوله الأحداث أمامهذه الجماعة فهم فتية آمنوا بربهم فزادهم الله هدى.

أسماء الفتية :

قال ابن عباس رضى الله عنهما (وكانوا ثمانية نفر مكسلمينا وكان أكبرهم وهو الذى كلم الملك عنهم ومحسيميلنينا ويمليخا ومرطوس وكشوطوش وبيرونس وديمموس ويطونس قالوس)(١).

«مايعلمهم إلا القليل» قال ابن عباس أنامن أولئك القليل وهم سبعة وفى رواية عنه وهم ثمانية أخرجهاابن أبى حاتم وأخرج عن ابن مسعود أيضاً قال أنا من القليل وكانوا سبعة وسماهم ابن اسحاق: تمليخا ومكسملينا ومحسليغا ومرطونس وكسوطونس وسورس وبكريوس وبطسوس وقالوس)(٢).

اسم ملكهم :

هو الطاغية الوثنى دقيانوس الذى حمل الناس على عبادة الأصنام ودعاهم للذبح للطواغيت (فلما أجمع دقيانوس أن يجمع أهل القرية لعبادة الأصنام والذبح للطواغيت بكوا إلى الله تعالى وتضرعوا إليه وجعلوا يقولون: اللهم رب السموات والأرض لن ندعوا من دونك إلهاً)(٣).

---

(١) تفسير الطبرى جـ١٥ صـ١٣٣

(٢) مفحمات الأقران فى مبهمات القرآن على هامش الفتوحات الإلهية جـ٤ صـ٥٦٧

(٣) تفسير الطبرى جـ١٢ صـ١٣٣

دينهم وسبب فرارهم :

كانوا مؤمنين وعقيدتهم المسيحية فكانوا بعد المسيح وأجمع العلماء على ذلك إلا ابن قتيبة قال كانوا قبل عيسى وأخبر قومه بخبرهم . يروى ابن جرير (حدثنا حميد قال ثنا الحكم بن بشير قال ثنا عمرو فى قوله أصحاب الكهف والرقيم كانت الفتية على دين عيسى عليه السلام وكان ملكهم كافراً وقد أخرج لهم صنما فأبوا وقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططا قال فاعتزلوا عن قومهم لعبادة الله فقال أحدهم أنه كان لأبى كهف يأوى فيه غنمه فانطلقوا بنا نسكن فيه فدخلوه وفقدوا فى ذلك الزمان فطلبوا فقيل دخلوا هـــذا الكهف فقال قومهم لا نريد لهم عقوبة ولا عذاباً أشد من أن نردم عليهم هـذا الكهف فبنوه عليهم ثم ردموه ثم إن الله بعث عليهم ملكا على دين عيسى ورفع ذلك البناء الذى كان ردم عليهم فقال بعضهم لبعض كم لبثتم ؟ فقالوا لبثنا يوما أو بعض يوم حتى بلغ فابعثوا أحدكم بورقكم هـذه إلى المدينة وكان ورق ذلك الزمان كبارا فأرسلوا أحدهم(١) يأتيهم بطعام وشراب فلما ذهب ليخرج رأى على باب الكهف شيئاً أنكره فأراد أن يرجع ثم مضى حتى دخل المدينة فأنكر ما رأى ثم أخرج درهما فنظروا إليه فأنكروه وأنكروا الدرهم وقالوا من أين لك هذا . هذا من ورق غير ورق هـــذا الزمان واجتمعوا عليه يسألونه فلم يزالوا به حتى انطلقوا به إلى ملكهم وكان لقومهم لوح يكتبون فيه ما يكون فنظروا فى اللوح وسأله الملك فأخبره بأمره ونظروا فى الكتاب متى فقد فاستبشروا به وبأصحابه وقيل

(١) هو يمليخا

له انطلق بنا فأرنا أصحابك فانطلق وانطلقوا معه ليريهم فدخل قبل القوم فضرب على آذانهم فقال الذين غلبوا على أمرهم عليهم مسجدا لنتخذن)(١) .

اسم بلدهم :

لقد اختلف العلماء فى تعيين بلدهم فقيل إنها فى أفسوس من منطقة طرسوس فى تركيا فهناك كهف يزار فيها ويقولون إنه كهف أصحاب الكهف (وقال ابن إسحاق الكهف فى جبل يقال له بنجلوس وقال مجاهد بين جبلين أخرج ذلك كله ابن أبى حاتم وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أن الرقيم واد قريب من أيله وأخرج عن شعيب الجبائى أن اسم جبل أصحاب الكهف بناجلوس واسم الكهف حرم و كلبهم ، قال الحسن اسمه قسطمير وقال مجاهد قطمورا وقال شعيب الجبائى حمراء وفى العجائب مائى قيل الرقيم كان اسم كلبهم)(٢) .

ولقد ظهر كهف فى الأردن فى جبل الرقيم بالقرب من قرية تسمى قرية الرجيب فهى محرفة عن الرقيم وبدأ العمل فى الكشف عنه سنة ١٩٦٣م ولقد ألف الأستاذ محمد تيسير ظبيان كتابا بعنوان « أهل الكهف وظهور المعجزة القرآنية الكبرى » وأوضح فيه الاكتشاف الأثرى فى الأردن وساق فى هذا الكتاب صوراً لموقع الكهف ولقد بين الأدلة على ذلك يقول رحمه الله (يمكن تقسيم الأدلة والقرائن والبينات التى تؤكد صحة وجود كهف أصحاب الكهف الوارد ذكره فى القرآن الكريم فى نفس الموقع الذى عثر عليه وتم اكتشاف معالمه فى جبل الرقيم قرب عمان إلى ثلاثة أقسام : دينية وتاريخية وأثرية .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٥ صـ١٣٢

(٢) مفحمات الأقران فى مبهمات القرآن هامش الفتوحات الإلهية جـ ٤ صـ ٥٦٦ بتصريف

الأدلة الدينية : — أما الأدلة الدينية فلعل أهمها وأجدرها بالاعتبار انطباق آية الشروق المذكورة فى سورة الكهف على هذا الموقع تماما . فقد جاء فى الآية الكريمة « وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه » ويقول البيضاوى فى تفسير هـــذه الآية إن الشمس تميل عن الكهف ولا يقع شعاعها عليهـــم فيؤذيهم لأن الكهف كان جنوبيا إذا غربت تقطعهم وتصرف عنهم يمين الكهف وشماله لقوله «وهم فى فجوة منه » أى وهم فى متسع من الكهف يعنى فى وسطه حيث ينالهم روح الهواء ولا يؤذيهم كرب الغار ولا حر الشمس وذلك لأن باب الكهف فى مقابلة بنات نعش وأقرب المشارق والمغارب إلى محاذاته مشرق رأس السرطان ومغربه والشمس إذا كان مدارها مدارة تطلع مائلة عنه مقابلة لجنبه الأيمن وهو الذى يلى المغرب وتغرب محاذية جنبه الأيسر فيقع شعاعها على جانبيه ويحلل عفونته ويعدل هواءه ولا يقع عليهم فيؤذى أجسامهم ويبلى ثيابهم وهذا ينطبق كل الانطباق على هذا الكهف فإنه يتجه إلى الناحية القبلية والشمس تطل عليه حين تشرق وتبعث بأشعتها إلى داخل بابه ولكنها لا تنفذ إلى داخله حيث توجد الفجوة التى كانوا فيها ويستمر الوضع كذلك حتى الغروب .

ويقول القرطبى « إن الله تعالى آواهم إلى كهف هذه صفته لا إلى كهف آخر يتأذون فيه بانبساط الشمس عليهم فى معظم النهار وعلى ذلك فيمكن أن يكون صرف الشمس عنهم باظلال غمام وسبب آخر والمقصود بيان حفظهم عن تطرق البلاء — وتغير الأبدان والألوان إليهم والتأذى بحر أو برد » .

والفجوة « المتسع » أى كانوا بحيث يصيبهم نسيم الهواء . وقد تم العثور على هذه الفجوة كما قدمنا : وجاء فى كتاب البداية والنهاية لابن كثير أن

الشمس فى زمن الصيف تشرق أول طلوعها فى الغار ثم تسرع فى الخروج منه قليلا قليلا وهو ازورارها ذات اليمين فترتفع فى جو السماء وتتقلص عند باب الغار ثم تشرع فى الدخول فيه من جهته الشرقية قليلا قليلا إلى حين الغروب كالمشاهد بمثل هذا المكان والحكمة فى دخول الشمس إليه فى بعض الأحيان أن لا يفسد هواؤه .

ومن الأدلة الدينية العثور على المسجد الذى ورد ذكره فى سورة الكهف «قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا» والمقصود من المسجد هو مكان العبادة الذى يسجد فيه وقد عثر على هذا المسجد الذى أقيم فوق الكهف بعد إزالة الأنقاض وظهرت سبعة أعمدة أثرية قديمة ربما نصبت فى هذا المسجد رمزاً لعددهم كما ظهر مسجد آخر أنشىء بهذا المكان المقدس . وكذلك الفترة التى أخلدوا فيها إلى النوم وهى ٣٠٠ سنة شمسية و٣٠٩ وقد أيدتها الاكتشافات الأثرية . وكذلك الفجوة التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم والتى وجدت فى داخل الكهف وتمتد إلى أعلاه بواسطة كوة «نفق» .

أما الأدلة التاريخية فقد أوردناها فى فصل «موقع الكهف» وهى تستند فى جملتها إلى ما رواه الصحابة ومن جاء بعدهم من الأمراء والقادة وعلماء المسلمين الذين زاروا هذا الموقع وما ورد على ألسنة شعراء العرب فى العصر الجاهلى والإسلامى وقد أيدتها وعززتها الحفريات التى أجرتها دائرة العامة فى ذلك الموقع)(١) .

ولقد عقد مؤلف الكتاب مقارنة بين كهف أفسوس فى تركيا وكهف الرقيم بالأردن تعتبر دليلا على أن كهف الرقيم بالأردن هو الذى ورد ذكره فى القرآن يقول :

---

(١) أهل الكهف وظهور المعجزة القرآنية ص٩٣ — ٩٦ .

١ — إن المسجد الوارد ذكره فى القرآن الكريم لا أثر له فى كهف «أفسوس» إذ لا يوجد فوقه أى بناء يدل على وجود هذا المسجد ولا يوجد بجواره أو على مقربة منه أى مسجد آخر .

٢ — على أثر الحفريات التى أجريت فى كهف أفسوس ظهرت فيه مئات المدافن مبنية من الطوب أما فى الكهف الذى اكتشف قرب عمان فظهرت ثمانية مدافن منقورة فى الصخر وهى بيزنطية استدل عليها من الزخرفة والنقوش التى عثر عليها .

٣ — لا يوجد فى كهف «أفسوس» أى نقوش أو كتابات تدل على أنه هو المقصود فى حين أن جدران كهف الرقيم فى عمان مليئة بالكتابات والنقوش والخطوط اليونانية والكوفية والثمودية .

٤ — تبين أن باب كهف «أفسوس» يقع فى الشمال الشرقى فآية الشروق لا تنطبق عليه فى حين أن كهف الرقيم فى الجنوب وآية الشروق الواردة فى القرآن الكريم تنطبق عليه تماما .

٥ — لا توجد فجوة فى كهف «أفسوس» فى حين أنه عثر فى كهف الرقيم على الفجوة الوارد ذكرها فى القرآن الكريم «وهم فى فجوة منه» .

٦ — إن تاريخ أقدم كنيسة فى «أفسوس» يرجع للقرن الأول الميلادى فى حين أن المعبد «المسجد» الذى أقيم فى الكهف على أثر استيقاظ أصحاب الكهف يرجع تاريخه إلى زمن الإمبراطور «تودوسيوس الثانى» أى فى القرن الخامس وهذا يتفق مع وضع كهف الرقيم . وقد عثر فيه على نقود لهذا الإمبراطور مع قطع من الفخار البيزنطى)(١) .

---

(١) المرجع السابق ص ٩٧ : ٩٨

ومن الغريب أن يذهب بعض الكتاب إلى أن الكهف كان فى رأفسوس فى إقليم طرسوس فى شبه جزيرة سيناء يقول الأستاذ محمود زهران (وكانوا فى مدينة أفسوس فى إقليم طرسوس فى شبه جزيرة سيناء تحت حكم الملك الطاغيه دقيانوس) (١).

قصتهم :

لما أجمع دقينوس أن يجمع أهل القرية لعبادة الأصنام والذبح للطواغيت بكوا إلى الله وتضرعوا إليه وجعلوا يقولون اللهم رب السموات والأرض لن ندعوا من دونك إلها لقد قلنا إذاً شططا ، اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة وادفع عنهم البلاء وأنعم على عبادك الذين آمنوا بك ومنعوا عبادتك الأمرا مستخفين بذلك حتى يعبدوك علانية فبينما هم على ذلك عرفهم عرفاؤهم من الكفار ممن كان يجمع أهل المدينة لعبادة الأصنام والذبح للطواغيت وذكروا أمرهم وكانوا دخلوا فى مصلى لهم يعبدون الله فيه ويتضرعون إليه ويتوقعون أن يذكروا لدقينوس فانطلق اولئك الكفره حتى دخلوا عليهم مصلاهم فوجدوهم سجودا على وجوههم يتضرعون ويبكون ويرغبون إلى الله أن ينجيهم من دقينوس وفتنته فلما رآهم أولئك الكفرة من عرفائهم قالوا لهم ما خلفكم عن أمر الملك فانطلقوا إليه ثم خرجوا من عندهم فرفعوا أمرهم إلى دقينوس وقالوا تجمع الناس للذبح لآلهتك وهؤلاء فتية من أهل بيتك يسخرون منك ويستهزؤن بك ويعصون أمرك ويتركون آلهتك ويعمدون إلى مصلى لهم ولأصحاب عيسى ابن مريم يصلون فيه ويتضرعون إلى إلههم وإله عيسى وأصحاب عيسى فلم تتركهم يصنعون هذا وهم بين ظهرانى سلطانك وملكك وهم ثمانية نفر رئيسهم مكسلمينا وهم أبناء عظماء المدينة فلما قالوا ذلك لدقينوس بعث إليهم

---

(١) قصص من القرآن ص ٢١٢

فأتى بهم من المصلى الذى كانوا فيه تفيض أعينهم من الدموع معفرة
وجوههم فى التراب فقال لهم ما منعكم أن تشهدوا الذبح لآلهتنا التى نعبد
فى الأرض وأن تجعلوا أنفسكم أسوة لسراة أهل مدينتكم ولمن حضر منا
من الناس اختاروا منى إما أن تذبحوا لآلهتنا كما ذبح الناس وإما أن أقتلكم
فقال مكسلمينا إن لنا إلهاً نعبده ملأ السموات والأرض عظمته ان ندعوا
من دونه إلها أبداً ولن نقر بهذا الذى تدعونا إليه أبدا ولكنا نعبد الله
ربنا له الحمد والتكبير والتسبيح من أنفسنا خالصا أبدا إياه نعبد وإياه نسأل
النجاة والخير فأما الطواغيت وعبادتها فلن نقربها أبداً ولسنا بكائنين عبادا
للشياطين ولا جاعلى أنفسنا وأجسادنا عباداً لها بعد إذ هدانا الله له رهبتك
أوفرقا من عبوديتك أصنع بنا مابدالك ثم قال أصحاب مكسلمينا لدقينوس
مثل ماقال قال فلماقالوا ذلك له أمر بهم فنزع عنهم لبوس كان عليهم من لبوس
عظمائهم ثم قال أما إذ فعلتم ما فعلتم فإنى سأوخركم أن تكونوا من أهل
مملكتى وبطانتى وأهل بلادى وسأفرغ لكم ما نجز لكم ما وعدتكم من
العقوبة وما يمنعنى أن أعجل ذلك لكم إلا أنى أراكم فتياناً حديثة أسنانكم
ولا أحب أن أهلككم حتى أستأنى بكم وأنا جاعل لكم أجلا تذكرون
فيه وتراجعون عقولكم ثم أمر بحلية كانت عليهم من ذهب وفضة فنزعت
عنهم ثم أمر بهم فأخرجوا من عنده وانطلق دقينوس مكانه إلى مدينة سوى
مدينتهم التى هم بها قريبا منها لبعض ما يريد من أمره فلما رأى الفتية
دقينوس قد خرج من مدينتهم بادروا قدومه وخافوا إذا قدم مدينتهم أن
يذكر بهم فأتمروا بينهم أن يأخذ كل واحد منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدقوا
منها ويتزودوا بما بقى ثم ينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة فى جبل يقال
له بنجلوس فيمكثوا فيه ويعبدوا الله حتى إذا رجع دقينوس أتوه فقاموا
بين يديه فيصنع بهم ما شاء فلما قال ذلك بعضهم لبعض عمد كل فتى منهم

فأخذ من بيت أبيه نفقة فتصدق منها وانطلقوا بما بقى معهم من نفقتهم واتبعهم كلب لهم حتى أتوا ذلك الكهف الذى فى ذلك الجبل فلبثوا فيه ليس لهم عمل إلا الصلاة والصيام والتسبيح والتكبير والتحميد ابتغاء وجه الله تعالى والحياة التى لا تنقطع وجعلوا نفقتهم إلى فتى منهم يقال له يمليخا فكان على طعامهم يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سراً من أهلها وذلك أنه كان من أجلهم وأجلدهم فكان يمليخا يصنع ذلك فكان إذا دخل المدينة يضع ثياباً كانت عليه حسانا ويأخذ ثيابا كثياب المساكين الذين يستطعمون فيها ثم يأخذ ورقة فينطلق إلى المدينة فيشترى لهم طعاما وشرابا ويتسمع ويتجسس لهم الخبر هل ذكر هو وأصحابه بشىء فى ملأ المدينة ثم يرجع إلى أصحابه بطعامهم وشرابهم ويخبرهم بما سمع من أخبار الناس فلبثوا بذلك ما لبثوا ثم قدم دقينوس الجبار المدينة التى منها خرج إلى مدينته وهى مدينة أفسوس فأمر عظماء أهلها فذبحوا للطواغيت ففزع من ذلك أهل الإيمان فتخبؤوا فى كل مخبأ وكان يمليخا بالمدينة يشترى لأصحابه طعامهم وشرابهم ببعض نفقتهم فرجع إلى أصحابه وهو يبكى ومعه طعام قليل فأخبرهم أن الجبار دقينوس قد دخل المدينة وأنهم قد ذكروا وافتقدوا والتمسوا مع عظماء أهل المدينة ليذبحوا للطواغيت فلما أخبرهم بذلك فزعوا فزعا شديداً ووقعوا سجودا على وجوههم يدعون الله ويتضرعون إليه ويتعوذون به من الفتنة ثم إن يمليخا قال لهم يا اخوتاه ارفعوا رءوسكم فاطعموا من هذا الطعام الذى جئتكم به وتوكلوا على ربكم فرفعوا رءوسهم وأعينهم تفيض من الدمع حذراً وتخوفا على أنفسهم فطعموا منه وذلك مع غروب الشمس ثم جلسوا يتحدثون فيتدارسون ويذكر بعضهم بعضا على حزن منهم مشفقين مما أتاهم به صاحبهم من الخبر فبينما هم على ذلك إذ ضرب الله على آذانهم فى الكهف سنين عددا وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف فأصابهم

ما أصابهم وهم مؤمنون موقنون مصدقون بالوعد ونفقتهم موضوعة عندهم فلما كان الغد فقدهم دقينوس فالتمسهم فلم يجدهم فقال لعظماء أهل المدينة لقد ساءنى شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا . لقد كانوا يظنون أن بى غضباً عليهم فيما صنعوا فى أول شأنهم لجهلهم ما جهلوا من أمرى ما كنت لأجهل عليهم فى نفسى ولا أؤاخذ أحداً منهم بشىء إن هم تابوا وعبدوا آلهتى ولو فعلوا لتركتهم وما عاقبتهم بشىء سلف منهم فقال له عظماء أهل المدينة ما أنت بحقيق أن ترحم قوماً فجرة مردة عصاة مقيمين على ظلمهم وقد كنت أجلتهم أجلا وأخرتهم عن العقوبة التى أصبت بها غيرهم ولو شاؤا لرجعوا فى ذلك الأجل ولكنهم لم يتوبوا ولم ينزعوا ولم يندموا على ما فعلوا وكانوا منذ انطلقت يبذرون أموالهم بالمدينة فلما علموا بقدومك فروا فلم يروا بعد فإن أحببت أن تؤتى بهم فأرسل إلى آبائهم فامتحنهم وأشدد عليهم فانهم مختبئون منك فلما قالوا ذلك لدقينوس الجبار غضب غضباً شديداً ثم أرسل إلى آبائهم فأتى بهم فسألهم عنهم وقال أخبرونى عن أبنائكم المردة الذين عصوا أمرى وتركوا آلهتى إئتونى بهم وأنبئونى بمكانهم فقال له آباؤهم أما نحن فلم نعص أمرك ولم نخالفك قد عبدنا آلهتك وذبحنا لهم فلم تقتلنا فى قوم مردة قد ذهبوا بأموالنا فبذروها وأهلكوها فى أسواق المدينة ثم انطلقوا فارتقوا فى جبل يدعى بنجلوس وبينه وبين المدينة أرض بعيدة هرباً منك فلما قالوا ذلك خلى سبيلهم وجعل يأتمر ماذا يصنع بالفتية فألقى الله عز وجل فى نفسه أن يأمر بالكهف فيسد عليهم كرامة من الله أن يكرمهم ويكرم أجساد الفتية فلا يجول ولا يطوف بها شىء وأراد أن يحييهم ويجعلهم آية لأمة تستخلف من بعدهم وأن يبين لهم أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور فأمر دقينوس بالكهف أن يسد عليهم وقال دعوا هؤلاء الفتية المردة الذين تركوا آلهتى

فليموتوا كما هم فى الكهف عطشاً وجوعاً وليكن كهفهم الذى اختاروا
لأنفسهم قبراً لهم ففعل بهم ذلك عدو الله وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون
ما يصنع بهم وقد توفى الله أرواحهم وفاة النوم وكلبهم باسط ذراعيه
بباب الكهف قد غشاه الله ما غشاهم يقلبون ذات اليمين وذات الشمال ثم
أن رجلين مؤمنين كانا فى بيت الملك دقينوس يكتمان إيمانهما اسم أحدهما
بدروس واسم الآخر روناس فأتمرا أن يكتبا شأن الفتية أصحاب الكهف
أنسابهم وأسماءهم وأسماء آبائهم وقصة خبرهم فى لوحين من رصاص ثم يصنعا
له تابوتاً من نحاس ثم يجعلا اللوحين فيه ثم يكتبا عليه فى فم الكهف بين
ظهرانى البنيان ويختما على التابوت بخاتمهما وقالا لعل الله أن يظهر على
هؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من فتح عليهم حين يقرأ
هذا الكتاب خبرهم ففعلا ثم بنيا عليه فى البنيان فبقى دقينوس وقرنه الذين
كانوا منهم ما شاء الله أن يبقوا ثم هلك دقينوس والقرن الذى كانوا معه
وقرون بعده كثيرة وخلفت الخلوف بعد الخلوف .

الآيات الواردة فى شأنهم

(أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا — إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا . فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا . نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا . وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقا . وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا . وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد . لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا . وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم . قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لاريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا . سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى

أعلم بعدتهم مايعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحداً) .

لقد سبق الحديث عن سبب نزول هذه الآيات عند الحديث عن ذى القرنين .

المباحث العربية

« أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا » ، أم هذه منقطعة وفى معناها اتجاهات ثلاثة :ـ

١ ــ أنها تفسر ببل التى للإضراب والهمزة .

٢ ــ أنها تفسر ببل فقط .

٣ ــ أنها بمعنى الهمزة الإنكارية فقط .

وعلى المعنى الأول : أظننت أن أهل الكهف والرقيم آيه عجيبة بل من الآيات ماهو أعجب منها كخلق السموات والأرض .

وعلى المعنى الثانى بل حسبت أن أصحاب الكهف .

وعلى المعنى الثالث أحسبت أن أصحاب الكهف ، والمعنى الأول نسير عليــــه .

« إذ أوى الفتية إلى الكهف » ، « إذا » ظرف والعامل فيه فعل محذوف والتقدير اذكر « أوى » انضموا إليه ودخلوه « الفتية » جمع فتى وهو الشاب الكامل « إلى الكهف » ، وهو الغار فى الجبل وجمع كهف كهوف .

« فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا » ، تضرعوا إلى الله « فقالوا ربنا آتنا » أعطنا من « لدنك » أى من قبلك رحمــة .

« وهيء » أى أصلح ويسر « لنا من أمرنا رشدا » (أمرنا) أى شأننا وحالنا من ابتدائية (رشدا) أى هداية (فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عدداً) معناه أى أوجدنا وخلقنا على آذانهم حجابا مانعا لهم من السماع فمفعول ضربنا محذوف والتقدير ضربنا حجابا ويجوز أن يكون الضرب بمعنى النوم والمعنى أنمناهم وذلك على سبيل الاستعارة حيث شبه الإنامة الثقيلة بضرب الحجاب على الآذان ثم حذف المشبه ثم يشتق من الإنامة الفعل أنمناهم على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

(سنين عددا) أى سنين معدودة فعددا نعت لسنين ووصف السنين بالعدد يدل على الكثرة لأنه إذا قل عرف بدون تعدد .

(ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً) (بعثناهم)أيقظناهم (لنعلم) اللام لام العاقبة (أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً) الحزبان الفريقان واختلف فيهما فقيل الحزبان من قوم الفتية كان أحدهما مسلما والآخر كافرا ماكان لأحدهم علم لاالمسلمين ولا الكافرين .

وقيل المراد أصحاب الكهف أنفسهم اختلفوا فى أنهم كم لبثوا لما تيقظوا (قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) .

وقيل المراد بالحزبين الملوك الذين تداولوا المدينة ملكا بعد ملك .

وأى مبتدأ والحزبين مضاف إليه وأحصى فعل ماض والفاعل ضمير مستتر جوازاً تقديره هو ولما لبثوا متعلق بأمدا وأمداً مفعول أحصى وما مصدرية وجملة أحصى خبر أى وجملة أى وخبرها سادة مسد مفعولى نعلم لأنه علق بالاستفهام ومعنى لبثوا أى مكثوا فى كهفهم (أمدا) أى غاية أو بعيدا .

(نحن نقص عليك نبأهم بالحق) نحن نتتبع آثارهم ونتلو عليك قصتهم وخبرهم (بالحق) أى متحرين الصدق وليس فى قصتهم شىء من الخيال والباء للملابسة وهى وما دخلت عليه حال من فاعل نقص أو من نبأ .

(أنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) الجملة الأولى مستأنفة وجملة زدناهم معطوفة على آمنوا والمعنى إنهم فتيان صدقوا بخالقهم ومربيهم وزادهم الله هداية ، وجملة آمنوا فيها التفات من التكلم إلى الغيبة .

(وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً) .

(ربطنا) الربط هو الشد بالحبل وفيه استعارة حيث شبه تقوية القلب بالربط بالحبل ثم حذف المشبه واشتق من الربط ربطنا على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية والمراد تقوية قلوبهم فلم يقع لهم رعب وقوى الله قلوبهم على هجر الوطن والمال والأهل .

(إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض) (إذ) ظرف لربطنا

والمعنى وربطنا على قلوبهم وقت أن قاموا بين يدى الملك وقد أمرهم بالسجود لصنمه فأبوا وقالوا ربنا خالق السموات والأرض .

(لن ندعو من دونه إلهاً) لن نعبد إلها غيره .

(لقد قلنا إذاً شططا) اللام واقعة فى جواب قسم محذوف والتقدير والله لئن دعونا غيره لقد قلنا إذاً قولا ذا شطط فشططا صفة لمصدر محذوف و (الشطط : الإفراط فى البعد) (١) .

(هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة) اسم الإشارة مبتدأ وقومنا

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٣٨٢ .

عطف بيان واتخذوا خبره وآلهة مفعول به واسم الإشارة وخبره مقول قول محذوف والتقدير قال أي أصحاب الكهف هؤلاء .. الخ

(لولا يأتون عليهم بسلطان بين) لولا تحضيضية بمعنى هلا وفيها معنى الإنكار . والسلطان البين : الحجة الواضحة والمعنى هلا يأتون بحجة واضحة على صحة آلهتهم .

(فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) الظلم هو مجاوزة الحد .

والفرى في قطع الجلد للحرز والإصلاح والافتراء يستعمل في الإفساد أكثر والكذب مخالفة الخبر للواقع والمعنى : لا أحد أظلم ممن اختلق على الله كذبا بنسبة الشريك إليه تعالى .

(وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقا) .

(وإذ اعتزلتموهم) شرطية وفي هذا تسامح لأن جملة فأووا جملة مقترنة بالفاء لأنها طلبية وجملة جواب الشرط إذا كانت طلبية تقرن بالفاء فتكون الجملة جواب الشرط ويجوز أن تكون ظرفية أو تعليلية وهذا ضعيف .

(ومايعبدون إلا الله) وما يجوز أن تكون موصولة والمعنى والذى يعبدونه ويجوز أن تكون مصدرية ظرفية وإذا اعتزلتموهم وعبادتهم والعبادة : الخضوع والتذلل والانقياد لأمر الله .

(فأووا إلى الكهف) أي التجئوا إلى الكهف) ينشر لكم ربكم من رحمته) يبسط لكم ويوسع عليكم (من رحمته) في الدنيا والآخرة . والرحمة رقة في القلب تقتضي الإحسان والمراد بها لازمها وهو الإحسان (ومن) تبعيضية . وينشر فعل مضارع مجزوم في جواب الأمر .

(ويهيء لكم من أمركم مرفقاً) ويسهل لكم من حالكم (مرفقاً)

ماترتفقون به أى تنتفعون به . « من أمركم » من لابتداء الغاية أو تبعيضية والجار والمجرور متعلق بيهىء ويجوز أن يكون الجار والمجرور حالا من « مرفقا » « وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه » الخطاب للنبى ﷺ أو لكل من هو أهل للخطاب . وترى بصرية وكل خطاب يأتى كذلك . و (قيل هناك جمل ثلاث محذوفة تقديرها فأووا إلى الكهف وناموا وأجاب الله دعاءهم حيث قالوا ربنا آتنا .. الخ)(١) .

« إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال » « إذا » ظرف للفعل ترى أو لتزاور وكذلك « وإذا غربت » أيضا معمول لتقرضهم « تزاور عن كهفهم » هذه الجملة الفعلية فى محل الحال . وقرأ ابن عامر تزور على زنة تحمر والكوفيون قرؤا تزاور بتخفيف الزاى وقرأ غيرهم بتثقيل الزاى ومعنى تزاور وتزاور بتخفيف الزاى بمعنى تميل وتتنحى ومنه قول الزور لأنه ميل عن الحق و « إذا غربت تقرضهم ذات الشمال » « تقرضهم » (القرض ضرب من القطع وسمى قطع المكان وتجاوزه قرضا)(٢) .

والمعنى وترى الشمس إذا طلعت تميل عن كهفهم يمين الكهف وإذا غربت تجاوزتهم فالشمس تميل عنهم طالعة وغاربة لاتبلغهم فتؤذيهم بحرها وتغير ألوانهم وتبلى ثيابهم والمقصود من هذا حفظهم من تطرق البلى وتغير الأبدان والألوان « وهم فى فجوة منه » هذه الجملة حالية والمعنى وهم فى متسع وسط الكهف « ذلك من آيات الله » اسم الإشارة مشار به إلى جميع ما تقدم وهو إنامتهم وحمايتهم من إصابة الشمس « من آيات الله » بعض

---

(١) الفتوحات الإلهية حـ٣ ص ١١ .

(٢) المفردات فى غريب القرآن ص ٦٠٤ .

دلائل قدرته تعالى «من يهد الله فهو المهتد» من يرد الله هدايته كأهل الكهف فهو المهتدى دون غيره والمهتد (بدون ياء فى الرسم — أى رسم المصحف العثمانى — لأنها من ياآت الزوائد وهى لا تثبت فيه وأما فى النطق فمنه الوقف تحذف عند الجميع وعند الوصل بعض السبعة يحذفها وبعضهم يثبتها)(١)

والفاء واقعة فى جواب الشرط وفى الجملة أسلوب حصر وهو تعريف الطرفين المبتدأ والخبر فهو المهتد «ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا» ومن يعدل عن الطريق المستقيم فلن تجد أيها المخاطب له ناصرا يرشده إلى الطريق المستقيم كدقيانوس وأصحابه «وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد» الخطاب للرسول ﷺ أو لكل من هو أهل للخطاب «وتحسبهم» تظنهم «أيقاظا» جمع يقظ «وهم رقود» جمع راقد.

(ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) (يقول جل ثناؤه ونقلب هؤلاء الفتية فى رقدتهم مرة للجنب الأيمن ومرة للجنب الأيسر كما حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد قال وذكر عن قتادة قوله (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وهذا التقليب فى رقدتهم الأولى قال وذكر لنا أبا عياض قال لهم فى كل عام تقليبتان) (٢) وقيل يقلبون كل تسع سنين وقيل فى التسع سنين الأواخر. والظاهر من السياق أن التقليب من فعل الله بالأمر (كن فيكون) أو أن الله أمر ملكا من الملائكة.

(وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) وكلبهم باسط يديه بالفناء وذهب العلماء إلى معان أربعة فى معنى الوصيد: فقيل بالوصيد بفناء الكهف وقيل الوصيد الباب وقيل العتبة وقيل الصعيد والتراب. والذى جرى عليهم جرى على كلبهم من التقليب وهو مثلهم فى النوم واليقظة.

---

(١) الفتوحات الإلهية حـ ٣ صـ ١٢.

(٢) تفسير الطبرى حـ ١٥ ص ١٤١.

(لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا) ولو بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين لو نظرت إليهم وهم على تلك الحالة لوليت منهم فرارا ، اللام واقعة فى جواب لو والتولى والفرار بمعنى واحد فيكون توكيداً . وفرارا يجوز أن يكون منصوبا على المصدر من معنى الفعل قبله ويجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال ويجوز أن يكون مفعولا لأجله (ولملئت منهم رعبا) معطوفة على الجملة السابقة و (رعبا) فزعا وهو تمييز

« وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم » والمعنى كما فعلنا بهم ما ذكرنا من حفظهم وتقليبهم (هم) أيقظناهم وسمى الإيقاظ بعثا لمشابهتهم بالأموات وطول المكث فى الكهف .

(ليتساءلوا بينهم) اللام لام التعليل أى ليسأل بعضهم بعضا فيتعرفوا حالهم وماصنع الله بهم فيزدادوا يقينا بكمال قدرة الله تعالى .

قال (قائل منهم كم لبثتم) ؟ قال واحد منهم وهو كبيرهم ورائدهم مكسلمينا (كم) منصوب على الظرفية والمميز محذوف والتقدير كم يوما مكثتم

(قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) أجابوه لبثنا يوما أو جزء يوم لظنهم أن الشمس غربت ثم رأوها لم تغرب .

(قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) حين تأملوا فى شعورهم وأظفارهم فعرفوا طول المدة .

« فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن أحداً » .

(فابعثوا) الفاء للتفريع والتقدير خذوا فى أهم من ذلك وفيما تنتفعون به فابعثوا أى أرسلوا . (أحدكم) هو تمليخا . « بورقكم » الجار والمجرور

متعلق بمحذوف حال أى فابعثوا أحدكم ملتبسا بورقكم والورق بكسر الراء هى الدراهم .

« هذه إلى المدينة » اسم الإشارة مشار به إلى الدراهم والمدينة هى التى سبق الحديث عنها .

« فلينظر أيها أزكى طعاما » الفاء للترتيب وكذلك فى قوله « فليأتكم » والمعنى فلينظر « أيها أزكى طعاما » أى الأطعمة أحل وأطهر من الحرام وأى يجوز أن تكون استفهامية ويجوز أن تكون موصولة .

« فليأتكم برزق منه » والرزق كل ما ينتفع به والمراد به هنا الطعام و « منه » من هنا إما بمعنى بدل ويكون المعنى فليأتكم برزق بدل الورق فالضمير يعود على الورق .

وإما بمعنى التبعيض أى من بعض الطعام « وليتلطف » أى وليرق فى معاملته مع هؤلاء فهم كفرة « ولا يشعرن بكم أحدا » ولا يعلمن بكم أحداً من الناس .

« وإنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً » إنهم » هذه الجملة استئنافية معللة للنهى « ولا يشعرن » والضمير فى إنهم يعود على أهل المدينة ويستفاد من السياق .

ومعنى « إن يظهروا عليكم » أى يتعاونوا ويتضافروا عليكم « يرجموكم » جواب الشرط والمعنى أى يقتلوكم بالرجم وهو أن تحفر للإنسان حفرة ثم يوقف فيها ثم يردم على نصفه بالتراب ثم يرمى بالحجارة حتى يموت .

« أو يعيدوكم » أى يصيروكم قسرا إلى ملتهم وهى عبادة الأوثان « ولن تفلحوا إذاً أبداً » الفلاح الظفر ولقد سبق الحديث عن إذاً

بأنها حرف جواب وجزاء وأبداً لفظ يدل على النفى على سبيل التأبيد واستشكل الحكم عليهم بعدم الفلاح مع أنهم مكرهون فالمكره بفتح الراء لا يؤاخذ بما أكره عليه ولدره . هذا الإشكال نقول إن عدم مؤاخذة المكره فى هذه الشريعة الإسلامية دون غيرها فهم مؤاخذون على مجاراة .

فلو لم تكن مؤاخذ لطاوع أهل الأخدود من حملهم على الكفر ونجوا من القتل .

« وكذلك أعثرنا عليهم » وكما أنمناهم وبعثناهم أعثرنا عليهم وأعثرنا أى أطلعنا عليهم قومهم والمؤمنين .

« ليعلموا أن وعد الله حق » الضمير المرفوع فى ليعلموا يعود على القوم « أن وعد الله » بالبعث . « حق » لا مرية فيه فالقادر على إنامة هؤلاء المدة الطويلة قادر على إحياء الموتى .

« وأن الساعة لاريب فيها » أى وأن القيامة لاشك فيها .

« إذ يتنازعون بينهم » « إذ » ظرف لفعل محذوف والتقدير واذكر وقت . « يتنازعون » يتخاصمون أى المؤمنون والكافرون « أمرهم » أى أمر الفتية حولهم . « فقالوا » أى « ابنوا عليهم بنيانا » أى ابنوا حولهم « بنيانا » مفعول مطلق مؤكد لعامله أى أقيموا عليهم بنيانا يسترهم « ربهم أعلم بهم » يحتمل أن يكون هذا من كلام المتنازعين ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى فلا يكون داخلا تحت القول .

« وقال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا » أى الذين كانت لهم الكلمة والغلبة وهم المؤمنون حيث غلب أمرهم على أمر من قالوا ابنو عليهم بنيانا لأن ملك ذلك الزمان كان مؤمنا وكان من جملة هؤلاء أما الملك الذين خرجوا على عبادته فقد مات وقت نومهم وبالفعل أقاموا مسجداً على باب

الكهف. « سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم » .

يقول عز وجل سيخبر الخائضون فى عهـــد النبى من أهل الكتاب والمسلمين ولا سند لهم فهم يخـبرون مفترقين على ثلاثة أقوال : الأول والثانى للنصارى(١) والثالث للمؤمنين . وقيل الأول لليهود . وأتى بالسين فى سيقولون إدماجا وحـذف من باقى الأفعال المعطوفة على سيقولون فإنها تأخذ حكمها من الاستقبـال للعطف على الفعل المقترن بالسين والمعنى إذا أجبتهم عن سؤالهم عن قصة أهل الكهف فسلهم عن عددهم فإنهم سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقول بعضهم خمسة سادسهم كلبهم .

« رجما بالغيب » رجما منصوب بفعل مقدر يرجمون رجما والرجم هو الرمى بالحجارة وهو استعارة حيث شبه كلامهم الناشىء عن الجهل ولا سند له بالرمى بالحجارة التى لا تصيب غرضا بجامع عـدم الإصابة فى كل والباء فى بالغيب للتعدية ورجما بالغيب للقول الأول والثانى .

« ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم » والقائلون هذا هم المؤمنون ولقد اقترنت الجملة الأخيرة بالواو للتوكيد وقيل زائدة (وقال العلامة الكافيجى هى فى التحقيق أو العطف لكن لمـا اختص استعمالهـا بمحل مخصوص وتضمنت أمراً غريبا واعتبارا لطيفا ناسب أن تسمى بأسم غير جنسها فسميت بواو الثمانية لمناسبة بينها وبين سبعة وذلك لأن السبعة عنـدهم عقد تام كعقود العشرات لاشتمالها على أكثر مراتب أصول الأعداد فإن الثمانية عقد مستأنف فكان بينهما اتصال من وجه وانفصال من وجه وهذا هو المقتضى للعطف وهذا المعنى ليس موجوداً بين السبعة والستة) (٢)

---

(١) وهم نصارى نجران وهو موضع بين الشام واليمن والحجاز وهى مدينة فى المملكة العربية السعودية .

(٢) الفتوحات الألهية حـ٣ ص ١٧

والحديث عن القول الأول والثاني لقوله « رجما بالغيب » دليل على أن القول الأخير مقبول وصحيح . « قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل » قل ربي أقوى علما وأزيد فهو أعلم بعددهم والتفضيل ليس بين الله وبين الطائفتين الأوليين إذ لا علم لهما فالتفضيل بين مراتب اليقين لأنها متفاوتة في القوة. « ما يعلمهم إلا قليل » قيل عني بالقليل أهل الكتاب وهذا ضعف ، ولقد روى عن ابن عباس عن طريق عكرمة : (ما يعلمهم إلا قليل قال أنا من القليل كانوا سبعة) (١) .

وروى عن ابن عباس عن طريق سعيد عن قتادة (أن ابن عباس كان يقول أنا أولئك القليل الذين استثنى الله كانوا سبعة وثامنهم كلبهم)(٢).

« فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحداً » الفاء يجوز أن تكون للاستئناف ويجوز أن تكون واقعة في جواب شرط مقدار والتقدير « ما يعلمهم إلا قليل » إذا عرفت ذلك فلا تمار أي لا تجادل ولا ناهية «إلا مراء ظاهرا » (سمعت الضحاك يقول في قوله « فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا » يقول حسبك ما قصصنا عليك ، وقال آخرون المراء الظاهر هو أن يقول ليس كما تقولون ونحو هذا من القول (٣) وقيل هو ما أبيح له أن يتلوه عليهم والمعنى فلا تجادل أحداً إلا بما قصصنا عليك من أمرهم .

« ولا تستفت فيهم منهم أحداً » تطلب الفتيا في أهل الكهف من أهل الكتاب فالضمير الأول المجرور لأهل الكهف والضمير الثاني لأهل الكتاب .

ولما سأله أهل مكة عن خبر أهل الكهف فقال أخبركم به غداً ولم يقل إن شاء الله فقال الله له « ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله » .

---

(١) تفسير الطبري حـ١٥ صـ ١٥٠ (٢) المرجع السابق
(٣) المرجع السابق

تفسير الآيات

أظننت أيها المخاطب أن أهل الغار والرقيم كانوا من آياتنا عجبا بل من الآيات ما هو أعجب كخلق السموات والأرض. واذكر وقت أن تمردوا على عبادة الأصنام وفروا من ملكهم وقومهم وأوى هؤلاء الفتية تاركين دنيا الناس بعيـدين عنهم فهم فى ظل تلك العبادة غرباء ووجدوا الأنس والألفة فى دنيا الغيران والكهوف وفى ظل عبادة الرحمن تضرعوا إليه راجين أن يمنحهم من عنده رحمة ويسهل لهم من أمورهم هداية وانتهى بهم المطاف إلى الغار فضرب الله على آذنهم فناموا سنين معدودة مجهولة لدى عامة الناس ثم بعثهم الله من رقدتهم الطويلة وتمر السنون والأزمان وتتناقل قصتهم الأجيال فى كل عصر لغرابة قصتهم وحيكت حولهم القصص وأنه كان فريقان يتجادلان فى شأنهم ثم لبثوا فى الكهف فبعثوا ليتبين أى الفريقين أدق إحصاء . ولقد تحدث الله عن جانب من القصة على سبيل الإجمال ثم شرع فى التفصيل فقال نحن نتتبع نبأهم بالحق إنهم فتية صدقوا خالقهم ومربيهم وزادهم الله هداية بإلهامهم كيف يدبرون أمرهم .

وشددنا على قلوبهم فقويناها فلا يعبأون بملكهم ولا بقومهم ، فصاحوا معترفين بالله سبحانه وتعالى ، ربنا خالق السموات والأرض والله لئن عبدنا غير الله لقد زدنا فى إفراطنا وقال أصحاب الكهف هؤلاء قومنا اتخذوا من دون الله آلهة فهلا أقاموا الحجج والبراهين على صحة عبادتهم غير الله تعالى فلا أحد أظلم ممن اختلق شريكا مع الله بالكذب . وبعد مقالة الفتية نظروا فرأوا اختلاف منهج القوم عن منهجهم ولا سبيل إلى الارتقاء ولا للمشاركة فى الحياة ولابد من الفرار بالعقيدة فهم ليسوا رسلا إلى قومهم فيواجهونهم بالعقيـدة الصحيحة وليسوا فى قوة القوم أو الملك الظالم فآثروا أن يتواروا عن قومهم وعبادتهم بعد أن كشف أمرهم

ويعبدون الله تعالى «وإذ أعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف» فآووا إلى الكهف الضيق الموحش المظلم وما أجمل حياة الغيران والكهوف ، فالرسول ﷺ ترك قومه وذهب إلى غار حراء يتحنث فيه الليالى ذوات العدد وداود كانت تحلو له العبادة فى الجبال «ياجبال أوبى معه والطير» فدنيا الغيران دنيا السكون والراحة .

«فأووا إلى الكهف» ففيه روح من عبادة الشرك وظلماته تتبدد بنور اليقين وفيه السعة والبحبوحة والفسحة حيث يؤدون عبادتهم بعيدين عن قهر قومهم وظلم ملكهم .

«ينشر لكم ربكم من رحمته» ويسهل من أمركم ما تنتفعون به . «ويهيء لكم من أمركم مرفقا» ويأتى مشهد آخر ليتحدث عن سر بداخل الغار وهو كيفية حفظ الله لأجسامهم فالشمس تدخل الغار فتطهره دون أن تقع على أجسامهم فتؤذيها وترى الشمس تميل عن كهفهم عند طلوعها فتملأ ماحولهم ولا تقع عليهم وعند غروبها تتجاوزهم فلا تصيبهم وهم فى وسطه وما يدور داخل الغار من دلائل قدرة الله تعالى من يرد الله به الهداية فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ناصراً مرشدا . ولو رأيتهم لظننت أنهم أيقاظ وهم رقود . وتقلبهم الملائكة ذات اليمين وذات الشمال لئلا تأكل الأرض لحومهم وكلبهم باسط يديه بالفناء . لو نظرت إليهم لأدبرت فاراً هاربا ولملئت منهم رعبا وكما فعلنا بهم ماذكرنا أيقظناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم مكثتم قالوا يوما أو بعض يوم . قالوا ربكم هو الذى يعلم بلبثكم . فأرسلو أحدكم بدراهمكم الفضية إلى المدينة فليتخير الطعام ويأتى الطعام حلالا وليرق فى معاملته حتى لا يثير حوله الناس ولا يخبرن بكم أحدا . إنهم إن أطلعوا عليكم وعرفوا موقعكم فيقتلوكم رجما بالحجارة أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفوزوا إذاً أبدا وكما بعثناهم أطلعنا عليهم قومهم المؤمنين والكافرين ليدركوا أن ماوعد الله به من البعث حق لأن القادر على إنامتهم تلك المدة

قادر على إحياء الموتى ، وإن القيامة آتية لا شك فيها واذكر وقت أن تنازع الكفار والمؤمنون فى أمرهم فقال الكفار أقيموا حولهم بناء ، ربهم أعلم بهم وقال المؤمنـون الذين غلب أمرهم ونفذ لنتخذن عليهم مسجداً .

ثم شرع فى بيان تنازع الناس فى عددهم فقال سيقول النصارى ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم دون علم وهذان الرأيان للنصارى ويقول المؤمنون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم مايعلمهم إلا قليل فلا تجادل فيهم إلا بما أنزل عليك ولا تطلب الفتيا فيهم من أهل الكتاب ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله .

المراجـــع

١ — الإتقان فى علوم القرآن ، للإمام جلال الدين السيوطى،ط دار الفكر ، بيروت .

٢ — الإسلام يتحدى ، لوحيـــد الدين خان ، ط المختار الإسلامى للطباعة .

٣ — البحر المحيط لأبي حيان الأندلسى ، دار الفكر للطباعة والنشر .

٤ — البداية والنهاية ، لابن كثير ، الفجالة ، القاهرة.

٥ — التفسير الكبير ومفاتيح الغيب ، للإمام فخر الدين الرازى ، دار الفكر للطباعة والنشر ودار الكتب العلمية .

٦ — التفسير والمفسرون ، د . محمد حسين الذهبى ، ط دار الكتب الحديثة .

٧ — الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبى ، دار الفكر للطباعة والنشر.

٨ — الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى لمؤلفه أحمد عبد الرحمن البنا ط دار إحياء التراث العربى .

٩ — الفتوحات الإلهية لسليمان بن عمر العجيلى الشهير بالجمل ط عيسى البابى الحلبى .

١٠ — القاموس المحيط ، مجد الدين محمد بن يعقوب للفيروز أبادى دار الجيل .

١١ — الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للزمخشرى ط مصطفى الحلبى .

١٢ — المفردات فى غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهانى مكتبة الإنجلو المصرية .

١٣ — إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبى السعود — دار الفكر للطباعة والنشر .

١٤ — أهل الكهف وظهور المعجزة القرآنية الكبرى للأستاذ محمد تيسير ظبيان ، دار الاعتصام .

١٥ — تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت .

١٦ — تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى للمباركفورى ط الفجالة الجديدة .

١٧ — جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت .

١٨ — روح المعانى للعلامة الآلوسى ، دار الفكر .

١٩ — سنن أبى داود السجستانى ، دار إحياء السنة النبوية .

٢٠ — سنن الدارمى .

٢١ — سنن النسائى بشرح الحافظ جلال الدين السيوطى وحاشية الإمام السندى ، المكتبة العلمية بيروت .

٢٢ — فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ، دار الفكر للطباعة والنشر .

٢٣ — فتح القدير للإمام الشوكانى ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى .

٢٤ — فى ظلال القرآن للشيخ سيد قطب ، دار الشروق .

٢٥ — قصص الأنبياء لابن كثير تحقيق مصطفى عبد الواحد دار الكتب الحديثة .

٢٦ — قصص من القرآن للأستاذ محمود زهران مكتبة غريب.

٢٧ — متن البخارى بحاشية السندى ط دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى .

٢٨ — مدارك التنزيل وحقائق التأويل ط دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى .

الفهرست

الموضـــوع	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب
٥٧٤٢ /١٩٨٨ م